العدد الخامس

السنة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربي

سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :

٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٠٠

الاشتراكات

قرش	
١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
للطلاب وجنود الجيش	
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

رجب سنة ١٣٧٣ — مارس سنة ١٩٥٤



غزوة تبوك

كان ذلك فى غرة رجب . . .

وبعد اثنتين وعشرين سنة قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الميامين فى بلاء متصل ، ثلاث عشرة منها بين أهل مكة العتاة ، وثمان فى المدينة : من غزوة إلى غزوة ، ومن سرية إلى سرية ، آخرها سرية على بن أبى طالب قبل ليالٍ معدودات ، خرج فيها على رأس مائة وخمسين من وجوه الأنصار ، ليهدم صنما لطيّء عبدوه من دون الله ، وشنّوا الغارة مع الفجر ، وهدموا الصنم ، وعادوا وأيديهم ملأى بالسبي والأنفال .

وكان الناس فى حر شديد ، وقد طاب الثمر ، واستُحب الظل ، وزُين للعرب المقام !... وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعسكر بثنية الوداع ، ويأخذ الناس بالجد ، وهم كثير لم يحص عددهم ، ولم تُسجل أسماؤهم ولا عناوينهم فى كتاب ... إنه يدعوهم هذه المرة إلى أمر كبير . . . إلى قتال الروم . . . وقد جاءه الخبر أنهم جيّشوا جيشاً هائلا بالشام ، وقدموا طلائعهم إلى البلقاء وعسكروا بها .

العدد الخامس

السنة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربى

سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥٠

الاشتراكات

ص	
١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
	للطلاب وجنود الجيش
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة البريد خارج القطر

رجب سنة ١٣٧٣ — مارس سنة ١٩٥٤



كان ذلك فى غرة رجب ...

وبعد اثنتين وعشرين سنة قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الميامين فى بلاء متصل ، ثلاث عشرة منها بين أهل مكة العتاة ، وثمان فى المدينة : من غزوة إلى غزوة ، ومن سرية إلى سرية ، آخرها سرية على بن أبى طالب قبل ليالٍ معدودات ، خرج فيها على رأس مائة وخمسين من وجوه الأنصار ، ليهدم صنما لطيّء عبدوه من دون الله ، وشنّوا الغارة مع الفجر ، وهدموا الصنم ، وعادوا وأيديهم ملأى بالسبى والأنفال .

وكان الناس فى حر شديد ، وقد طاب الثمر ، واستُحب الظل ، وزُين للعرب المقام !... وإذا رسول الله صلى الله وسلم يعسكر بثنية الوداع ، ويأخذ الناس بالجد ، وهم كثير لم يحص عددهم ، ولم تُسجل أسماؤهم ولا عناوينهم فى كتاب ... إنه يدعوهم هذه المرة إلى أمر كبير ... إلى قتال الروم ... وقد جاءه الخبر أنهم جيّشوا جيشاً هائلا بالشام ، وقدموا طلائعهم إلى البلقاء وعسكروا بها .

وكان صلى الله عليه وسلم لايغزو غزوة إلا ورّى بغيرها لئلا تذهب الأخبار بما يريد ، حتى كانت هذه الغزوة — غزوة تبوك — فجلى للناس أمرهم ليأتهبوا له أهبته ، وأخبرهم بالوجه الذى يريد ، وبعث إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى عدوهم ، وحضّ على الجهاد ورغّب فيه ، وأمر بالصدقة ، فحملت إليه صدقات كثيرة ، وأول من حمل صدقته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، جاء بماله كله : أربعة آلاف درهم ، لم يُبق لعياله منها درهما ، فقال له الرسول : هل أبقيت شيئاً ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله ! وجاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له رسول الله : هل أبقيت شيئا ؟ قال : نعم نصف مالى . وبلغ عمر ماجاء به أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : ما استبقنا إلى خير إلا سبقنى إليه ! وحمل العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه تسعين ألفا ، وجهز عثمان بن عفان رضى الله عنه ثلث ذلك الجيش ، فجاء بألف دينار ففرغها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقلبها ويقول : ماضر عثمان مافعل بعد هذا اليوم . . . قالها مرارا ! .

وسارع النساء إلى تلبية داعى السماء للبذل فى سبيل الله ، فتسابقن إلى الثوب المبسوط بين يدى النبى ، يلقين فيه المسك والمعاضد والخلاخل والأسورة وكل ماقدرن عليه ! .

وهكذا تكلم الإيمان بين يدى تبوك ، وكان كلامه هذا المال المبذول ، وهذه الحلى المنثورة ، وهؤلاء الذين نفروا فى الحر الشديد ، مؤثرين وجه الله ومرضاته على الأهل والمال والدعة ! حتى الذين أعفتهم الحاجة وكان لهم فيها تكأة — لو أرادوا — أحزنهم أن تفوتهم كرامة الغزو مع رسول الله ، فجاءوه يطلبون أن يهيء لهم مايحملهم ، فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، فولّوا يبكون ، وفيهم نزل قول الله « ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون » .

وبإزاء هذه الأمثلة الكريمة ، ابتُلى ركب النبوة بأمثلة أخرى غير كريمة ، لم يمنعها نور النبوة أن تحاول العبث فى الظلام ، ولم يغنها جلال الحق عن التردى فى الحمأة المنتنة . . . فإنه ماإن بلغ الناس أذان رسول الله إلى المعركة القاسية حتى

هتكت دعوته أستاراً كانت تستر النفاق والكفر فى نفر فى معسكر المسلمين ، ونزلت سورة « الفاضحة » تكشف الستر عمن ظنوا أنهم لايزالون بعد كل ماأجرموا فى نجوة من العين التى تكشف خبيثهم ، وجاءت آياتها مدمدمة[1] صارمة تدك الأسوار الكاذبة من حول الأنفس الوضيعة والأخلاق المريضة كى تتبدّى على حقيقتها فى المجتمع الجديد النظيف ، ولتلقى جزاءها الحق خزيا فى الدنيا وعذابا فى الآخرة ، وتولى رب الدنيا والآخرة إعلان خزيها وعذابها فى حادثة لا يزال خبرها بين أيدينا ، ولا تزال آياتها تتلى علينا . . لو أنا قرأنا التاريخ وعقلْنا عن الله ! ! .

جاء قوم يعتذرون عن الخروج ويتعللون بالمعاذير ، ويقولون : والله لو استطعنا لخرجنا معكم .. فنزل جبريل بقول الله « لو كان عَرَضا قريبا وسفرا قاصدا لاتَّبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون » .

وبدا للرسول صلى الله عليه وسلم أن يأذن لبعضهم فى التخلف ، فإذا بعتاب السماء : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلَّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » .

وجاء الجدّ بن قيس الأنصارى يقول للرسول : ائذن لى ولا تفتنى ، فجاء قول الله « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى . . . ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » .

وتكلم بعض المنافقين يثبطون الهمم ويشيعون الضعف فى معسكر المؤمنين وقالوا : « تحسبون جلاد بنى الأصفر (الروم) كقتال العرب بعضهم لبعض ، والله

(١) الفاضحة والمدمدمة اسمان من أسماء سورة التوبة ، وهى سورة غزوة تبوك .

لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ! » فقال رسول الله لعمار بن ياسر : « أدرك القوم فإنهم قد اخترقوا فاسألهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا » فذهب إليهم ، فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال الله : « ولئن سألتهم ليقولُنَّ إنما كنا نخوض ونلعب ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » .

ومن المنافقين من ظن فى الرسول ظن السوء ، وخيّل له أنه قادر على مخادعته والتغرير به ، ولن يكلفه ذلك إلا أن يحلف له فيصدقه فهو إذن يصدق كل ما يسمع ، فنزل به رد السماء « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ، قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » .

وتخلف المتخلفون عن الغزو وهم قادرون عليه ، وضنوا بأموالهم وأنفسهم أن يبذلوها فى سبيل الله ، وزين لهم الهوى والضعف ماهم فيه من ترف ودعة ، فتنزلت فضيحتهم من فوق سبع سموات : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » ثم تجردهم من ثقة المجتمع بهم « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوا : إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » ثم تبلغ بالشدة مداها فى دنيا الناس ، وتجعلهم نكالا ماداموا أحياء ، وتصب عليهم غضب الله ومقته وهم يودعون الأحياء : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره : إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » !!.
وغير ذلك كثير يجده المتأمل فى سورة التوبة ولا تتسع له هذه الصفحات .

***

وبين هؤلاء المارقين وأولئك الأبرار طائفة مال بها الضعف ميلة أدركتهم بعدها رحمة الله ، فقد كان وراءها صدق يتردد فى صدورهم ، وأنفس كريمة عصرها الألم لما وقعوا فيه ، وما كانوا ليعفوا من العقوبة لولا وحى الله الذى يعلم طوياتهم ، ولم ينزل

العفو عنهم إلا بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه . وإنك لتجد نبأهم فى كتاب الله : « وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » .

ويفصل أحد الثلاثة — كعب بن مالك — قصتها فيما يرويه عبدالله بن كعب فيقول : « لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك . غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يُعاتب أحدا تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها . وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله كثير لا يجمعهم كتاب[1] حافظ (يريد بذلك الديوان) .

قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر ، فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئا ، وأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ؛ ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا . فلم يزل ذلك يتمادى لى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل

(١) أى لم يكن للمسلمين فى ذلك الوقت سجلات تجمع أسماءهم .

فأدركهم فياليتنى فعلت ؛ ثم لم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه ، فقال له معاذ بن جبل رضى الله عنه : بئس ما قلت ؛ والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبينما هو على ذلك إذ رأى رجلا مبيضًا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا خيثمة ! فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون .

فقال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى[1] فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدا ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح[2] عنى الباطل ، حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا فأجمعت صدقه .

وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً ؛ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له — وكانوا بضعاً وثمانين رجلا — فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت ؛ فلما سلّمت تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال . فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى . ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال ، قلت يا رسول الله إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أُعطيت جدلاً ، ولكننى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله يسخطك على ، وإن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عقبى الله عز وجل . والله ما كان لى من عذر ؛ والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

---

(١) البث : الحزن .

(٢) زاح : بعد وذهب .

قال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » .

وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : « والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ؛ لقد عجزت فى أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك » قال ، فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم هل لقى هذا معى من أحد ؛ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قال ، قلت من هما ؟ قالوا : مرارة بن ربيعة العمرى وهلال بن أمية الواقفى . قال فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة حين ذكروهما لى .



ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فأجتَنَبنا الناس (أو قال) تغيروا لنا حتى تغيرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ؛ فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ؛ وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ! فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلمنى أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فسكت ؛ فعدت فناشدته ، فسكت ؛ فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة ، إذا نبطى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلى حتى

جاءنى فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته ، فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فألحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها !

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى ، إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى ، فقال : إن رسول الله صلى عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا بل اعتزلها فلا تقربنها . وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر . فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يارسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لايقربنك . فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وماذا يدرينى ماذا يقول رسول الله صلى الله وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا . ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علىّ نفس وضاقت علىّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ! فخررت ساجداً ، وعرفت أنه قد جاء فرج فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قِبل صاحبىّ مبشرون ، وركض إلىّ رجلٌ فرساً وسعى ساع من أسلم قِبَلى وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشراه ، والله ما أملك غيرها يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم رسول الله

صلى الله عليه وسلم يتلقانى الناس فوجاً فوجاً ، يهنئونى بالتوبة ويقولون لى : لتهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس . فقام طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره (فكان كعب لا ينساها لطلحة) .

فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مرّ عليك مذ ولدتك أمك . فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله عز وجل . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . فقلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يا رسول الله ، إن الله تعالى إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلانى الله تعالى . والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقى ، فأنزل الله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ».



قال كعب : والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا . إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، فقال الله تعالى : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم

فأعرضوا عنهم إنهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

قال كعب . وليس الذى ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

***

واشتد الأمر على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجنوده ، وكان عددهم ثلاثين ألفاً واستعر الحر وغاب الماء ، وجهدوا جهدا أليما ، وذهب أبو بكر إلى الرسول يقترح عليه أن يدعو ربه ، فرفع الرسول يديه وما فى السماء سحاب ، فإن هو إلا قليل حتى استدارت فوق الركب الميمون سحابة مزجاة ، وسحت السماء ماء مدرارا ، فتهلل الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : « أشهد أنى رسول الله » وهى كلمات يجد فيها المؤمن صورة أخاذة لنفس النبى فى لحظات من عمره الملىء المبارك !

***

وحدث والرسول فى الطريق إلى المدينة — بعد أن وصل إلى تبوك ولم يجد أثراً لجيش الروم ، وعلم أن الخبر الذى جاءه تعجل به ناقلوه ، وأنه كان محض ابتلاء من الله تعالى هيأ أسبابه — أن جاءه جبريل يأمره أن يبعث لهدم مسجد الضرار ، وهو المسجد الذى أوعز ببنائه أبو عامر الراهب الخزرجى ، وكان فى الجاهلية تنصر وقرأ علم أهل الكتاب وله شرف فى قومه . فلما أجتمع الناس على رسول الله المدينة وأظهرهم الله فى بدر فر إلى مكة وظاهر المشركين ، ولم يأل جهداً فى مناوأة المسلمين ، وكان من فعله فى أحد أن حفر الحفائر فيما بين الصفين فوقع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحداها . . . ولما رأى أمر الإسلام فى ارتفاع قصد هرقل ملك الروم يستنصره على النبى صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه .

وأقام أبو عامر عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور

لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك . وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » .

فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم — مسجد قباء — الذى أسس من أول يوم على التقوى :

« والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهدمه فهدمه قبل مقدمه المدينة .

* * *

هذه يا أخى قصة غزوة تبوك ، أو قطوف من قصتها ، وما أجمل أن تتناول — أنت — كتاب الله لتقرأ حديث الله عنها ! !

سعيد رمضان

الإسْراءُ والمِعَراج

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ — فى العام التاسع من البعث المحمدى مات أبو طالب الذى كان كبير قريش وعظيمها ، ومرجع أمرها ، وكان مع إشراكه يحب رسول الله تعالى ، ويحميه من أذى قريش ؛ حتى إذا اشتدت الشديدة مرة من قريش ؛ وأبو طالب يطالب النبى صلى الله عليه وسلم بالرفق فى دعوته ، فيصيح محمد بن عبد الله فيهم « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما فعلت » فيقول أبو طالب العظيم : « اذهب يابنى فقل ما شئت ، والله لا أسلمك أبدا » وإن قريشاً لتجتمع لتحمل أبا طالب أن يسلم إليهم محمدا ليمنعوه من دعوته ، على أن يعطوه أنهد فتى فى قريش فيقول لهم عظيم مكة : أعطيكم ولدى تقتلونه وتعطونى ولدكم أغذوه لكم ، والله لاأسلم محمداً أبدا .

مات أبو طالب هذا ، ففقد محمد نصيراً قويا ، حتى لقد قال صلى الله عليه وسلم : « مانالتنى قريش بشىء أكرهه حتى مات أبو طالب » .

٢ — وبعد موت أبى طالب بأشهر ماتت زوج محمد أم المؤمنين خديجة ، وكان يجد فيها العزاء فى وقت الشديدة ، تمده بكل ما اكتنزه قلبها الكبير من حنان الأنوثة ولطف العشرة ، وإلهام الفطرة ، وهى التى رجع إليها يرجف فؤاده فى أول نزول الوحى ، فعاضدته وناصرته ، وفاض لسانها بما يبعث فيه الأمل والرجاء ، فقالت له : « إنك تنصر الضعيف ، وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر ؛ ولن يضيعك الله أبدا » ثم أخذته ساعتها إلى ابن عمها ورقة وكان على علم بالكتاب ، فقص عليه ماقص ، ولقد قال فيها ابن هشام فى سيرة سيد المرسلين : « كانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها » ولذا سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك السنة « سنة الحزن » فقدَ فيها من الناس النصير ، والمواسى .

٣ — نالته قريش بالأذى الشديد ، واشتد البلاء ، ولـكن لم يفقد محمد الرجاء ، فقد دأب على دعوته ، وإن ضعف أمله فى قريش ، وإن رجا النصرة فى غيرهم ؛ فذهب إلى الطائف مع غلامه زيد بن حارثة ، فدعا كبراء ثقيف إلى الإسلام ، فردوه أقبح رد ؛ وأغروا به سُفهاءهم وصغارهم يقذفونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه صلى الله عليه وسلم ، وشجوا رأس زيد . وكانت هذه الأمور من أشد ما نزل بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فاتجه إلى ربه يدعوه ، ويضرع إليه ، ويبثه نفسه وعزمه ، فيقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملـكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولـكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تُنزِل بى غضبك ، أو تحل على سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

٤ — فقد محمد نصراء الدنيا ، وفقد العزاء ، فـكان لابد من عزاء روحى ؛ لقد كفر به الناس ، وناوءوه ، واشتد بلاؤهم وطغيانهم ، فعوضه ربه بأمرين جليلين ، فى عامين متتالين ، أولهما : أن الجن آمنوا به ؛ لقد كفر به الناس ، فعزاه الله بإيمان الجنة الذين لايراهم الناس ؛ ولذا نزل فى السنة العاشرة قوله تعالى : « قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » ... إلى آخر هذه السورة .

كان استماع الجن وإيمانهم فى العاشرة ، وكان فى السابع والعشرين من رجب فى الحادية عشرة الأمر الثانى — الذى كان فيه العزاء والغذاء الروحى وآيات الله الـكبرى وهو الإسراء والمعراج ؛ الإسراء الذى نوّه الله سبحانه وتعالى بأمره ، فقال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريَه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » والمعراج قد بينه سبحانه وتعالى بقوله تعالت قدرته : « والنجم إذا هوى ماضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحْىٌ يوحى ، علَّمه شديد القوى ، ذو مِرَّةٍ فاستوى ،

وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلّى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ماأوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على مايرى ، ولقد رآه نزلةً أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة مايغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

٥ — كان الإسراء والمعراج العزاء الروحى ، فى وقت قد اشتدت الشدائد ، وتوالت المكايد ؛ وكان التأييد من رب العالمين ، وقد ذهب التأييد من الناس .

ولقد كان الإسراء والمعراج فى ليلة واحدة ؛ ولقد قيل إن المعراج كان مرتين ، كما قال تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى » وأن هذه المرة الثانية هى التى صاحبت الإسراء .



والإسراء هو السير ليلاً ، ولقد صرَّح به القرآن الكريم تصريحا لايقبل الشك ؛ إذ قال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ولقد صدّر سبحانه وتعالى الآية بقوله « سبحان » أى تقدست ذاته العلية ، وتعالت قدرته سبحانه وتعالى فهو القادر على كل شىء ، يستطيع أن ينقل عبده من مكة إلى بيت المقدس ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى ليلة واحدة ، وهى عند الناس مسيرة أربعين ليلة ، وأنَّى تكون قدرة الناس بجوار قدرة خالق الناس . وتنص الصحاح من كتب السنة على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبيت فى الليلة السابعة والعشرين من رجب بمنزل أم هانىء بنت عمه أبى طالب ، وقد كانت من المؤمنات رضى الله عنها . صلى العشاء ، ثم لما أصبح الصباح أخبرها عليه السلام بمسراه من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، فقالت له يا نبى الله لاتُحدِّث بهذا الحديث الناس فيكذِّبوك ويؤذوك ، قال والله : لأحدثنهموه ، فأخبرهم . ويقول بعض الرواة إنه أصبح واجما : أى ساكنا ، فأخذ يتلطف بإخبارهم أولاً بالإسراء ، ولم يخبرهم بالمعراج الذى كان مقترناً به ، فذهب إلى البيت الحرام فالتقى به أبو جهل ، فقال له — مستهزئا — هل من خبر ؟ فقال عليه السلام نعم ، فقال وما هو ؟ فقال : إنى أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس ؛ قال إلى بيت المقدس ؟ ! ! فأراد أبو جهل جمع قريش ليسمعوا منه ذلك ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم ليخبرهم بذلك

ويبلغهم ، فقال أبو جهل : هيَّا معشر قريش وقد اجتمعوا من أنديتهم ، فقال أخبر قومك بمـا أخبرتنى به ، فقص عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة ، وصلى فيه ، فمن بين مصفق ، ومصفر تكذيباً له ، واستبعاداً لخبره ، وطار الخبر بمكة ، وجاء الناس إلى أبى بكر رضى الله عنه فأخبروه أن محمداً يقول كذا وكذا ، فقال إنـكم تـكذبون عليه ، فقالوا والله إنه ليقوله ، فقال رضى الله عنه : إن كان قاله لقد صدق ، ثم جاء إلى رسول الله وحوله مشركو قريش ، فسأله عن ذلك فأخبره ، فاستعلمه عن صفات بيت المقدس ليسمع المشركون ويعلموا صدقه فيما أخبرهم به ، فقالوا أما الصفات فقد أصاب[١] .

ولقد ذكر لهم من الأمارات التى تدل على صدقه ؛ فقد سألوه عن عيرهم ، فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها ، وأحوالها ، وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، يقدمها جمل أوْرَق ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت ، فقال آخر ، وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق .

٦ — هذه قصة الإسراء فى إيجاز ، وهى تتضمن أمرين — أولهما : قدرة الله سبحانه وتعالى القاهرة التى لا يحدها زمان ، ولا مكان ؛ فهى تقطع المسافات مهما طالت فى زمن محدود ، فهى فوق الزمن وفوق مايحده الزمن ؛ ولذا قال سبحانه وتعالى « لنريه من آياتنا الـكبرى » .

الأمر الثانى : إقامة الحجة القاطعة على المشركين من أنهم ليسوا طلاب حق ، ولا متبعين للحق ؛ ذلك لأنهم كثيراً ما كانوا يطلبون معجزة غير القرآن الـكريم ، « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تـكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله والملائـكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينـا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشرا رسولا » .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١١٣ .

طلبوا هذه المعجزات الحسية فى مجادلاتهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه آية حسية قدمها النبى لهم فى الإسراء : ذهب من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى ليلة واحدة ، وأقام لهم الدليل المادى على مسراه ، فهل آمنوا ؟ إنهم لم يؤمنوا ، بل أكثر من هذا أن بعض ضعاف الإيمان قد ارتدوا ، وزاد الله أقوياء الإيمان إيماناً حتى إن أبا بكر الذى لو وزن إيمان هذه الأمة بإيمانه لرجحها يقول وقد سئل أتصدقه فى خبر الإسراء ؟ فقال : « إنى لأصدقه على أبعد من ذلك » .

إن طالب الحق يجد فى نورالقرآن ما يهديه ، وفى آياته المعجزة الكبرى ، فهؤلاء لأنهم يجحدون بالآيات وقد استيقنتها أنفسهم يمارون ويجادلون ، ولو نزل عليه كتاب فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقالوا هذا سحر مبين . وحديث الإسراء أدل شىء على ذلك .



٧ — وإن الإسراء كما تدل الآية الكريمة ، وكما تدل الأحاديث الصحيحة كان بجسم النبى صلى الله عليه وسلم وروحه ، ولقد روى أن حذيفة بن اليمان ، وعائشة رضى الله عنها ، ومعاوية بن أبى سفيان ، كانوا يرون أن الإسراء كان بالروح فقط ؛ ولكن الحق ما عليه العلماء أجمعون ، وذلك لأمور ثلاثة .

أولها : أن صريح القرآن هو ذلك ؛ إذ قال : « أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » والعبد روح وجسد ، وليس روحا فقط ، ولو كان القصد الروح لصرح بذلك ، وما كان ربك نسيا .

وثانيها : أن الله سبحانه وتعالى صدر الآية الكريمة بقوله تعالى — سبحان — الدالة على كمال التقديس وكمال القدرة ، فكان ذلك دليلا على أن ما بعدها يتصل بقدرة العلى الحكيم ، وهى فى إسراء الجسم ؛ لا إسراء الروح ، بل إن انتقال الروح انتقال معنوى لا يسمى إسراء ، ولا يصح أن يحمل فقط على غير معناه ، إلا بنص من الشارع ، أو دليل من العقل قاطع .

وثالثها : أن الإسراء لو كان سبحة روحية ما كان فيه غرابة تستدعى إنكار من ينكر ، بل لا تستدعى أن يجمع أبو جهل قريشا ، ليتخذ من القصة سبيلا للكيد

وحمل الناس على المبالغة فى التكذيب والإنكار ، بل ما كان ثمة غرابة تجعل ضعيف الإيمان يرتد .

وما كانت فى عبارات النبى صلى الله عليه وسلم التى خاطب بها قريشا ، ما يدل على أن الأمر أمر روح ،وليست انتقالا حسيا .

٩ — هذا ما يقال فى الإسراء ، وإن أكثر الرواة على أن المعراج قد اقترن بالإسراء ، واقترن بالمعراج فرض الصلوات الخمس ؛ وعلى ذلك يكون المعراج قد تم أيضا فى تلك الليلة المباركة ليلة السابع والعشرين من رجب ، وإنه كما قررنا ثبت المعراج بأول سورة النجم الذى تلوناه ، ففى هذا الجزء من السورة أن الله سبحانه وتعالى تجلى لنبيه وعلمه ، فقد قال تعالى: «علمه شديد القوى ، ذومرة فاستوى ، وهوبالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى » فهذه الآيات الكريمات تدل أولا على أنه سبحانه وتعالى تجلى على نبيه ، وعلمه وأوحى إليه بالصلاة وهى ركن الدين ولبه ، وأنه صلى الله عليه وسلم فى هذا التجلى رأى ربه بعين بصيرته ، وبفؤاده ، ولذا قال سبحانه وتعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى » .

١٠ — وهذه الآيات قد ساقها كثيرون من العلماء على أنها تدل على معراج النبى صلى الله عليه وسلم من الأرض إلى السموات العلا ، حيث تجلى عليه رب البرية ، كما تجلى للجبل عند ما طلب موسى ؛ وما كان لله مكان ، إنما كان تجليه لنبيه فى هذا المكان ، وذلك على أن قوله تعالى « علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى » حديث عن الذات العلية وهو الظاهر ، وقال بعض من المفسرين إنه جبريل ؛ فالحديث كله عن جبريل ، والظاهر بلا شك هو الأول ، وقد ساق علماء الحديث ، حديث المعراج على طرائق شتى ؛ لبابها ما رواه مسلم فى صحيحه ، والإمام أحمد فى المسند ، وهذا نصه : « أتيت بالبراق ، وهودابة فوق الحمارو دون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته ، فسار بى ، حتى أتيت بيت المقدس ، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط

بها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فأتاني جبريل بإناء من خمر ، وإناء من لبن فاخترت اللبن ، فقال جبريل أصبت الفطرة ، قال ثم عرج بي إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ، فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا بآدم فرحب ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل له من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ، ففتح فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى ، فرحبا بي ، ودعوا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو وأعطى شطر الحسن ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، فقيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد بعث إليه فإذا أنا بإدريس ، فرحب لي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، فقيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح فإذا أنا بهارون ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، فقيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل ، فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، فقيل أو قد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من آخر ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها ، فأوحى الله إليّ ما أوحى ، وقد فرض الله عليّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك ، قلت خمسين في كل يوم وليلة ، قال فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإني قد

بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم ، قال فرجعت إلى ربى فقلت أى ربى خفف عن أمتى فحط خمسا فنزلت حتى انتهيت إلى موسى قال ما فعلت ؟ فقلت حط عنى خمسا ، فقال إن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فلم أزل أرجع بين ربى وموسى ، ويحط عنى خمسا خمسا ، حتى قال يا محمد : هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت عشرا ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة » .

١١ — هذا حديث المعراج ، وقد ذكر فيه الإسراء ، وقد قررنا من قبل أن الإسراء كان بالروح والجسد ، فهل المعراج كان كذلك ؟ لقد قرر كثيرون من العلماء أن المعراج كذلك بالروح والجسد ، ولقد أثيرت حول ذلك مشاكل ، أولاها :

أن الله سبحانه وتعالى بمقتضى الحديث تجلى على نبيه فى السماء السابعة ، فهل هذا مكان الله تعالى ؟ والجواب عن ذلك أن الله تعالى ليس له مكان ، لأن ذلك من خواص الأجسام ، والله سبحانه وتعالى قد تجلى على نبيه فى ذلك المكان ؛ فالمكان كان ليسمو النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكان القدسية ، فيكون فى حال يستطيع أن يتجلى له رب البرية ، فالمكان بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم لا بالنسبة للعلى الأعلى .

والثانية : أن النبى رأى ربه ، والرؤية تقتضى أن يكون المرئى فى مكان ما دامت الرؤية بالعين المبصرة . والجواب عن ذلك أن النبى رأى ربه بقلبه لا ببصره ، ويؤيد ذلك أنه عليه السلام قال رأيت ربى بفؤادى مرتين ، وقد قال تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى » ، فالرؤية للفؤاد ، ولقد سأل أبو ذر الغفارى النبى صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ، فقال « رأيت نورا » وروى أنه قال « نور أنى أراه » .

ومن العلماء من يقول إن النبى صلى الله عليه وسلم ما رأى ربه فى المعراج ، إنما رأى جبريل ، وقد ذكرنا أن صريح سورة النجم يناقض ذلك ، ولذلك نحن نختار أن الرؤية كانت بالقلب والفؤاد .

الثالثة : أن من الأنبياء الذين ذكروا فى السموات العلا ، كموسى وهرون وإبراهيم دفنوا فى الأرض ، فكيف يكونون فى السماء ؟ ويجاب عن ذلك بأن الذى فى السموات العلا أرواحهم ، وأرواحهم هم كاملون .

١٢ — هذا هو الرأى الأول ، وهو أن المعراج كان بالجسد والروح ؛ ويرى فريق كبير من العلماء أن المعراج كان بالروح ؛ فإن سورة النجم تومىء بهذه المعانى الروحية ، فهو قد رأى ربه بفؤاده كما ورد النص ، وهو أدرك ربه نورا أشرق فى نفسه ، كما قال عليه السلام « إنه نور » وهكذا يكون كل ذلك بالسبح الروحى ، لا بشىء آخر ، وإن البخارى ، وهو أصح كتب الحديث ، صرح بأن المعراج كان بالروح ، فقد صدر الحديث بقوله : سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه ، وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم ، فقال آخرهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ، ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه عنهم جبريل ... ثم ذكر أنه عرج به إلى السماء الدنيا فضرب بابا ... إلى آخره .

فدل هذا على أن المعراج كان بالروح ، ويظهر من سياق الأحاديث أن المعراج كان مرتين أحدهما وهو بمكة ، والثانية وهى الأخيرة كانت مقترنة بالإسراء ، وكانت من بيت المقدس منزل النبيين ، وفيه كان ذلك التجلى الروحى ، وذلك المشهد النورانى ، وإن الله على كل شىء قدير .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من تكبَّر وضعه الله ، ومن تواضع رفعه الله » .

« رواه الخطيب عن عمر بإسناد صحيح »

فى ظلال القرآن

للأستاذ سيد قطب

(٢)

« يا أيها النبي حسبك الله ومن اتَّبعك من المؤمنين * يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضَعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين * ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ فى الأرض ، تريدون عَرَض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم * لولا كتابٌ من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ، واتقوا الله إن الله غفور رحيم .

يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم * وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم .

إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير * والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير * والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم * والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم » .

* * *

هذه الأمة التى ألف الله بين قلوبها وجمعها على قلب رجل واحد ، بعد الفرقة والعداوة والشتات ، وحقق فيها معجزة وقوع المستحيل فى عرف الواقع والناس ... يوحى الله إلى رسوله أنها حسبه ففيها الكفاية لتحقيق رسالته ؛ ويأمره بأن يحرضها على القتال لتحقيق كلمته فى الأرض ، ولإزالة القوى الطاغية الباغية التى تقف فى الطريق :

« يا أيها النبى حسبك الله ومن اتَّبعك من المؤمنين . يا أيها النبى حرِّض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين . . . » .

ويقف الفكر ليستعرض القوة التى لا راد لها ولا معقب عليها — قوة الله — ومنها قوة المتعلقين بالله . وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة التى تتصدى لكتائب الإيمان بقيادة الرسول — فإذا الفرق شاسع والبون بعيد . وإذا هى معركة مضمونة العاقبة معروفة النهاية ، لا يشك فيها عقل ، ولا يرتاب فيها قلب . بل لا مجال فيها للأخذ والرد : « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتَّبعك من المؤمنين . . . » .

ومن ثم يأتى الأمر بتحريض المؤمنين على القتال — فى سبيل الله — وقد تهيأت كل نفس ، واستعد كل قلب ، وشحن كل عصب ، وتحفز كل إحساس : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » . . . حرضهم وهم لعدوهم أكفاء ، وإن قل عددهم وكثر أعداؤهم : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » ... فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل عجيب : « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » . فما صلة الفقه بالغلب فى ظاهر الأمر ؟ ولكنها صلة قوية وصلة حقيقية . إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بالبصيرة ، وتمتاز بالفقه ، وتمتاز بتفتح القلب للهدى ، وتفتح العقل للتدبر ، فأما القلوب المغلقة والبصائر المطموسة ، فهى كليلة عاجزة مهما تكن قوتها المادية متفوقة ظاهرة ، إنها قوة

معزولة عن النبع الخالد والأصل الكبير . . وفهم المسلمون من هذه الآية أنه إن كان منهم واحد فإنه لا يجوز له أن يفر من عشرة . . وتعاظم هذا واشتد عليهم . فخفف الله عنهم ، وقال لهم : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ... » . فهي القوة المضاعفة حتى مع افتراض الضعف . قوة رجل لرجل ، وقوة القلب الذي يعمره الإيمان ، والذي يجاهد لله ، والذي يستشعر صلته بالقوة الكبرى ، والذي لا يخشى أن يموت ، لأنها الشهادة في سبيل الله ، ولأنها الحياة الحقة عند الله : « والله مع الصابرين » الذين يثبتون للشدة ، ويصبرون على المشقة ، ويثقون بالنصر حتى يتحقق وعد الله .

***

ومن التحريض على القتال إلى بيان حكم الأسرى — أسرى بدر — بمناسبة تصرف الرسول — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين فيهم : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ، واتقوا الله إن الله غفور رحيم » .

روى الإمام أحمد بإسناده — عن عمر رضي الله عنه — قال من حديث طويل عن يوم بدر : « . . . فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا ، وأسر منهم سبعون رجلا ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإني أرى أن نأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ . قال : قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكني من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل(١) فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا

(١) عقيل بن أبي طالب .

هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . . . فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ؛ وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — وأبي بكر وهما يبكيان فقلت ما يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . قال النبي — صلى الله عليه وسلم — « للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة — شجرة قريبة من النبي صلى الله عليه وسلم — وأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض — إلى قوله : فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً » فأحل لهم الغنائم . فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب النبي — صلى الله عليه وسلم — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — وكسرت رباعيته[1] ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه . . . الخ » .

لقد كانت غزوة بدر هى المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين . وكان المسلمون قلة والمشركون كثرة . وكان نقص عدد المحاربين من المشركين بالقتل أو بالأسر كسباً ضخماً فى هذه الحالة لا يعدله مال . وكان هنالك معنى آخر يراد تقريره فى النفوس وتثبيته فى العقول . ذلك هو المعنى الكبير الذى أشار إليه عمر رضى الله عنه — فى صرامة ونصاعة : « حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين » . لهذين السببين الكبيرين نحسب أن الله كره للمسلمين أن يفادوا أسارى بدر ، وأن يؤثروا الفدية على الإمساك بهؤلاء الأسرى . فإما آمنوا فيزداد بهم عدد الفئة القليلة المؤمنة ، وإما أصروا على الكفر فهم فى أسر المسلمين قوة معطلة من كثرة المشركين .

ولهذه الظروف يشير النص إلى الإثخان فى الأرض : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » أى حتى يقاتل طويلا ، فيقتل ويجرح من أعدائه المحاربين . ذلك حتى تقوى شوكة الدين ويستقر وجوده وتعلو كلمته . ولا يؤذيه أن يقبل الفدية من الأسرى ويطلقهم سالمين .

(١) إحدى الأسنان الأماميه .

ولذلك عرض القرآن بالمسلمين الذين قبلوا الفداء فى أسرى المعركة الأولى : « تريدون عرض الدنيا » فقبلتم المال وأطلقتم الأسارى « والله يريد الآخرة » ويوجهكم إليها ، لتكون هدفكم الوحيد ، فتعملوا لها وحدها ، بإعلاء كلمة الله وتثبيت دينه فى الأرض ، وإضعاف أعدائه الذين يصدون عن سبيله بتقليل عددهم بالأسر والتقتيل « والله عزيز حكيم » قدر لكم النصر وقدر لكم المغفرة ، ومن ثم عفا عنكم فيما مضيتم فيه فى أسرى بدر وأعفاكم من عذابه جزاء على السير فى هذا الطريق : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم » ثم زادكم الله من فضله فأحل لكم الغنائم ، وكانت محرمة فى الديانات قبل الإسلام « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » ولكن مع استشعار التقوى ومع رقابة الله « واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم » يغفر للمتقين ، ويرحم المخطئين ما اتصلت قلوبهم بالله بهذا الوجدان الحساس الكفيل برد القلوب إلى الله ، وباستقامتها على الطريق .

ثم يلمس قلوب الأسرى لمسة تحيى فيها الرجاء ، وتطلق فيها الأمل ، وتشيع فيها النور ، وتعلقها بمستقبل خير من الماضى ، وبحياة أكرم مما كانوا فيه ، وبكسب يرجح ما فقدوا من مال وديار ، وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ، ويغفر لكم والله غفور رحيم » .

هذا الخير كله معلق بأن تصلح قلوبهم ، فيعلم الله أن فيها خيراً ، وأن فيها خصباً ، وأن فيها نداوة ، وأن فيها استعداداً لحضانة البذرة الطيبة ، والغرسة الكريمة بذرة الحق ، وغرسة الإيمان[1] . ذلك أن الإسلام حين يستبقى الأسرى لديه ، فإنما

---

(١) عن الزهرى عن جماعة سماهم قال : بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس : يا رسول الله قد كنت مسلماً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل ابن أبى طالب بن عبد الله ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهد . قال : ما ذاك عندى يا رسول الله . قال : « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ؟ قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنت لبنى الفضل وعبد الله وقثم » قال : والله يا رسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله . إن هذا لشىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يا رسول الله =

يستبقيهم ليلمس فى قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح ؛ وليستردهم إلى الهدى الذى تنكبوه . لا ليستذلهم انتقاماً ، ولا ليسخرهم استغلالا . فأما استرقاق الأسرى فقد كان معاملة بالمثل ، لأن استرقاق الأسرى إذ ذاك كان نظاماً عالميا[1] . ومع ذلك فإن رأى الإمام أبى حنيفة أن لا رق للأسرى على الإطلاق .

وفى الوقت الذى يفتح الله للأسارى نافذة الرجاء المشرق الرحيم يحذرهم خيانة الرسول — صلى الله عليه وسلم — كما خانوا الله من قبل فلاقوا هذا المصير :

« وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » .

خانوا الله فأشركوا به وقد أخذ عليهم ميثاق الفطرة بالتوحيد . فإذا شاءوا خيانة رسوله وهم أسرى فى يديه ، فليذكروا عاقبة الخيانة الأولى ! والله عليم بسرائرهم ، حكيم فى إيقاع العقاب بهم « والله عليم حكيم » .

* * *

ثم تختم السورة ببيان طبيعة العلاقات بين المؤمنين والمشركين . . إنها ليست علاقات الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس . ليست هى القرابة ، وليست هى الوطن ، وليست هى القومية . . إنما هى علاقة العقيدة ، والعقيدة وحدها . فالذين آمنوا وهاجروا إلى المؤمنين متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ، والذين آووهم ونصروهم واحتضنوا عقيدتهم .. أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ليس بينهم وبين المؤمنين ولاية ، لأنهم لم يتجردوا بعد للعقيدة . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض . . وهــذه هى الخطوط الرئيسية فى العلاقات والارتباطات . ذلك لتقوم العلاقات والارتباطات على أساس صحيح وإلا وقعت الفوضى وعم الفساد . باختلاط القيم التى تقوم بها أواصر الحياة .

= ما أصبتم منى — عشرين أوقية من مال كان معى — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا . ذاك شىء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، فأنزل الله عز وجل : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم ، والله غفور رحيم » . قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام، عشرين عبداً كلهم فى يده مال يضرب به ، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

(١) فصلنا ذلك فى الجزء الثانى من الظلال .

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر — إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق — والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض — إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله . إن الله بكل شيء عليم » . .

والولاية كانت فى أول الأمر ولاية توارث وتكافل فى الديات . فالأخوة التى عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار قامت مقام الأخوة الحقيقية فى الميراث وغيره . حتى انتهت الفترة الحرجة فى حياة المسلمين ، فعادت مسائل الإرث والدية إلى قرابة الدم ، وبقيت ولاية التكافل العام بين الجماعة الإسلامية كافة .

فأما الهجرة التى يشير إليها النص ، ويجعلها شرطاً لتلك الولاية فهى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام لمن استطاع الهجرة ولم يمنع عنها . فأما الذين يملكون الهجرة ولا يهاجرون استمساكا بمصالح أو قرابات أو صلات مع المشركين ؛ فهؤلاء لا تجب على المسلمين ولايتهم — كما كان الشأن فى جماعة من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا لمثل هذه الملابسات .

وأمثال هؤلاء يجب على المسلمين نصرهم إن استنصروا فى الدين — على شرط أن لا يخل المسلمون فى هذه النصرة بعهد مضروب بينهم وبين قوم آخرين . وهى قمة فى الاحتفاظ بالعهود تتطلع إليها البشرية ولا تنالها حتى اللحظة الحاضرة .

لقد سبق الإسلام جميع الاتجاهات والتيارات التى تجمع الناس تحت راية عقيدة ، وتجعل الرابطة الأولى بينهم هى العقيدة ، والنظام القائم على هذه العقيدة . فليس الذى يربط بين الناس هو قرابة الدم فى الأسرة — إذا اختلفت العقيدة — وليست هى الأرض التى تضمهم — إذا اختلفت العقيدة — وليس هو الجنس الذى ينحدرون منه — إذا اختلفت العقيدة — وإنما هى عقدة القلوب المتصلة بعقيدة واحدة ، وعقدة النظام المستمد من تلك العقيدة .

وبعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن تحاول البشرية أن تقيم تكتلاتها على أساس فكرة وعلى أساس نظام . بدلاً من العنصريات التى ذاقت الأمرين من جرائها ، وبدل القوميات التى عانت من ويلاتها . ولكن البشرية التى لم تهتد بالإسلام تقيم هذه التكتلات على أساس أفكار أرضية ونظم وضعية ، فتفشل فى تصفية روح البشر وإعلائها ، وتوجيهها إلى آفاق وضيئة ، لا تصطدم فيها المصالح والطبقات والتيارات .

لقد حطم الإسلام كل الاعتبارات التى تقوم حاجزاً بين بعض البشر وبعض ، ليقيم حاجزاً واحدا فى مفرق الطريق . . أو ليقيم علامة واحدة فى مفرق الطريق . . فإما طريق إلى الله ، وإما طريق إلى الشيطان . فمن كانوا مع الله متجردين من كل اعتبار آخر فهم أولياء بعضهم لبعض . ومن كانوا مع الشيطان فهم أولياء بعضهم لبعض . ومن آمن بالله ، ولكنه لم يتجرد من الأواصر الأخرى التى تشده وتحتجزه فليس بينه وبين الجماعة الإسلامية ولاية . إنما هو مسلم ينصره المسلمون حين يستنصر بهم فى الدين إلا على قوم بينهم وبين الجماعة الإسلامية عهد ، فالإسلام يصون عهوده حتى ينبذها على سواء — ولكن المسلمين لا يحتملون تبعة ولايته فيما عدا الاستنصار بالدين ، ما لم يهاجر إليهم ، ويتجرد من كل آصرة سوى آصرة العقيدة التى تجمعهم .

لقد كان الإسلام سابقاً بنظامه ، وسابقاً باتجاهاته — وما يزال — وإن البشرية لتتطلع فى الطريق لتتابع خطواته . ولكنها لا تبلغ ، لأنها لا تسير على النهج ، ولا تبدأ من حيث بدأ ، ولا ترتفع إلى حيث ارتفع . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ .

قال رجل لعمرو بن عبيد : إنى لأرحمك مما يقول الناس . قال : أفتسمعنى أقول فيهم شيئا ؟ قال لا . قال : إياهم فارحم .

الانحراف عن العقيدة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

حين نتحدث عن العقيدة وأنها ملاك الأمر كله ، وأن بها نجاح صاحبها فيما يحاوله ويبتغيه ، وأن فسادها أو الانحراف عنها ليس له من نتيجة طبعية ومنطقية إلا الفشل وسوء المصير وعدم نجاح الدعوة التي تقوم عليها — نقول حين نتحدث عن هذا وذاك ، لا نريد عقيدة بعينها ، بل نريد العقيدة على اختلاف ضروبها وأنواعها .

نريد بذلك العقيدة باعتبارها معتقداً نفسياً تطمئن إليه النفس ويمتلىء به القلب . أى سواء أكانت عقيدة دينية مصدرها الوحى ، أم عقيدة سياسية أو اجتماعية ، وسواء فى ذلك عقيدة الفرد ، أو عقيدة الجماعة من الناس الذين يجمعهم حزب من الأحزاب مثلاً ، أو عقيدة أمة من الأمم .

وهذه العقيدة لابد منها للإنسان ، فى الدين أو الاجتماع أو السياسة ، لأن الاعتقاد فى شىء مّا حاجة من حاجات النفس لابد من تلبيتها . وهى بعد ذلك قوة دافعة إلى الأمام ، لا يقف شىء أمامها متى كانت صادقة خالصة ، لا يشوبها شىء من النفاق أو الانحراف .

وبها ، كان ما عرفنا وعرف التاريخ من حوادث التضحية والاستشهاد فى سبيل ما يعتقده المرء حقاً ، وبها كانت التضحية أمراً عذباً تُقبِل عليها النفس فى فرح واستبشار ؛ وتاريخ الدعاة والمصلحين ، من من المسلمين وغير المسلمين ، شاهد صدق على ما نقول .

وإذا كانت العقائد التى تهيمن على القلوب ، ويكون لها هذا السلطان على النفوس كما قلنا ، ضروباً وأشكالا متعددة ، فإن أعلاها — بلا ريب — العقيدة الدينية فى الله

الواحد الأحد الفرد الصمد ، فى الله الذى وعد عباده المؤمنين به حق الإيمان إحدى الحسنيين : عز الدنيا ، أو سعادة ، الآخرة ، أو هما معاً .

فبهذه العقيدة أذلت القلة المؤمنة الكثرة الكافرة ، وبهذه العقيدة فتح الله للمسلمين المؤمنين الصادقين بلاد كسرى وقيصر ، وبهذه العقيدة كان المؤمن يسعى للموت والاستشهاد فى سبيل الله ورسوله فرحاً مستبشراً بما وعده الله وبما سيلقاه إن انتصر أو لحق بالرفيق الأعلى .

وبهذه العقيدة ، كان أولئك المؤمنون الصادقون فى إيمانهم « فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألاّ خوف عليهم ولاهم يحزنون » . ولا عجب ! فهم « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .



ولا تكمل هذه العقيدة الدينية فى الإنسان إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلا إذا أسلم وجهه لله وهو محسن ؛ فهو يؤثر طاعته فى كل حال : فى المنشط والمكره ، وهو يؤمن أنه بالله يستطيع كل شىء وبغيره لا يقدر على شىء ، وهو يعمل على أن يستخرج كل حظوظ الشيطان من نفسه وقلبه حتى يكون نقيا وخالصاً لله وحده .

وإذا كان هذا هو خصائص العقيدة الدينية وما تتميز به عن العقائد الأخرى ، فإن الانحراف عنها له درجاته ، وهذه الدرجات قد يكون من أدناها أن يعتمد المؤمن على حوله وقوته متناسياً فى بعض الأحوال أنه ليس بشىء بدون حول الله وقوته ، كما قد يكون أكبر درجات هذا الانحراف أن يسوء ظنه بالله ، وأن يبقى قلبه مليئاً بما يوسوسه الشيطان له ، ومن ثم قد يصل به هذا الحال إلى النفاق ، ونعوذ بالله من النفاق ووباله !

وقد نستطيع أن نضرب كثيراً من الأمثال ، التى فيها معتبر ومزدجر لمن يريد الخير لنفسه ودينه وأمته ووطنه ، التى يجرها على القوم هذا النفاق الذى مأتاه فساد العقيدة فى الله ، بما كان من المنافقين فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ هؤلاء

المنافقون الذين يقولون آمنا وما هم بمؤمنين ، والذين أخلفوا الله ما وعدوه ، والذين لا نزال نرى لهم تحت السمع والبصر فى هذا الزمان خلفاً سيئاً !

ولكننا نعرض عن هذه الأمثال ، فالقرآن ملىء بها ، وهى على حبل الذراع لمن يريد . ولكن نحب أن نشير إلى « حالة نفسية » كانت لبعض المسلمين فى غزوة « حنين » فكان لها أثرها الخطير فى هذا اليوم ، وهذه الحالة خاصة بمبلغ العقيدة فى الله وحده ، وأنه — لا غير — الضار النافع الذى يؤتى نصره من يشاء .

لقد نصر الله تعالى المؤمنين فى مواطن كثيرة ، نصرهم فى يوم بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة ، وقد كانوا فى هذه الأيام قلة مؤمنة تقابل كثرة مشركة ، فكانوا لا يعتمدون إلا على الله وحده ويلتمسون منه النصر الذى يؤتيه من يشاء وييسر أسبابه ووسائله .

ولكنهم يوم « حنين » بخاصة كانوا كثيرين ، إذ بلغ عددهم اثنى عشر ألفاً من المهاجرين والأنصار والطلقاء الذين منّ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح «مكة» ، على حين كان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف ومن حالفهم فى هذا اليوم من سائر العرب . فلما التقى الإسلام بجنده بالشرك وحزبه ، قال سلمة بن سلامة الأنصارى . « لن نغلب اليوم من قلة » ، فساءت هذه الكلمة الرسول صلوات الله وسلامه عليه . ومع هذا فلم يخلهم الله من عونه وتأييده ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وانهزم المشركون وولوا الأدبار وخلّوا الذرارى .

وهنا ، حصلت « حالة نفسية » أخرى ، تلاها أثرها العملى الخطير ، إذ جنح بعض المسلمين إلى الغنائم يجمعونها من هنا وهناك ، ونسوا أن النصر الحاسم لم يستتب بعد ، وأن الغاية من القتال ليست حوز الغنائم ومتاع هذه الحياة الدنيا . وحينئذ تذامر المشركون ، ونادى بعضهم بعضا « يا حماة السوء أذكروا الفضائح » : وكان أن ارتد المشركون للقتال فانكشف المسلمون ، وظهر لهم يقينا أن كثرتهم لم تغن عنهم شيئا ، ولكن بعد أن انهزموا نتيجة لهذين الأمرين : ثقتهم بأنفسهم وبكثرتهم ، وانكباب بعضهم على الغنائم يحوزونها ولم تضع الحرب أوزارها .

وفى هذا ، يقول الله تعالى فى سورة التوبة : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة

ويوم حنين ، إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا . . . » الآية .

ونعوذ بالله أن نظن بأحد من المسلمين شيئا من السوء ، بَلْه انحرافا أى انحراف عن العقيدة ! إنما هى إشارات إلى درس بليغ حكيم تلقاه المسلمون فى ذلك اليوم (يوم حنين) حين أعجب بعضهم بما هم عليه من كثرة فى العدد والعدّة ، بالنسبة لأعدائهم من المشركين ، وحين سارع بعضهم إلى الغنائم يحوزونها ولم تضع المعركة بعد أوزارها .

وإنما هى إشارات أيضا ، إلى ماذ كرَّهم الله العزيز الحكيم به من نصرهم فى مواطن ومعارك أخرى كثيرة ، وكانت وقعة « بدر » رأس هذه الأيام أو المعارك المشهودة المشهورة .



ففى هذه « الوقعة » التى كانت فاتحة عز الإسلام وإذلال الشرك ، والتى كانت حريّة بأن تزلزل القلوب الرواسخ ، لما كان عليه المشركون من قريش وأحلافها من الاعتداد بالقوة والمنعة ، نرى المقداد بن الأسود يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : لانقول كما قال قوم موسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك !

وفى هذا اليوم الأغر ، نرى سعد بن معاذ يتحدث باسم الأنصار فيقول للرسول صلى الله عليه وسلم : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا . إنا لصُبُر فى الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، لعل الله يريك ماتقر به عينك ، فسِرْ بنا على بركة الله !

ما أدل هذا الكلام من المقداد وسعد ، على الإيمان الصادق والعقيدة الراسخة ! وما أروعه من عهد على السمع والطاعة يؤكد ماسبقه من عهد ، وإن كان فيه الموت ! وما أعذب الموت فى هذه الحال فى سبيل العقيدة وإنفاذ أمر الله ورسوله ! وما أبعد

هؤلاء المهاجرون والأنصار عن الاعتزاز بشيء غير قدرة الله وقوته ، وغير عونه وتأييده ونصره لهم وقد امتلأت قلوبهم ونفوسهم بالعقيدة فى الله وحده ، ووطنوا النفوس على النصر أو الشهادة !

* * *

وبعد ! هذا الإيمان الكامل بالله ، هذه العقيدة النقية القوية بالإسلام الذى رضيه الله دينا لنا ، هذه العقيدة الخالصة التى بها فتح المسلمون بلاد كسرى وقيصر ، والتى حملها المسلمون إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ماذا صارت إليه ؟ وماذا صار إليه المسلمون بعدها ؟ وهل نعتبر أنفسنا ، معشر المسلمين ، اليوم أحفاد أولئك الرجال العظام بعد أن انحرفنا عما كانوا عليه من إيمان وعقيدة ، بل بعد أن أصبح كل ذلك إلى فساد فينا ؟

إن الأمر ليس أمر الدين فحسب ، بل الأمر أمر كل حياتنا الدينية والاجتماعية والسياسية معا ، فإن الانحراف عن العقيدة التى كانت ملاك الأمر كله والسبب الأول لمجد المسلمين وعظمتهم هو علة كل ما نشكو منه هذه الأيام من فشل وتأخر وانحطاط فى كل نواحى الحياة .

صارت منا فئة لاتثق بالإسلام ومقوماته ، ولا بالدين وتقاليده ، ومن ثم فقدت الإيمان بالإسلام كدين ، وبالمسلمين كأمة قادرة على قيادة العالم من جديد كما قادته فى الماضى البعيد .

ولعلنا لانبالغ إن قلنا إنه لم يبق إلا القليل من المسلمين من يرى مع شاعر الإسلام « محمد إقبال » أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشرى حيث سار ؛ بل خُلق ليوجِّه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة والعلم اليقين !

هذا ، ولهذا الاحتمال تفصيل نلمس منه سوء عاقبة فساد العقيدة أو الانحراف عنها ، وذلك ببحث بعض نواحى حياتنا الدينية والاجتماعية والسياسية ، ومن الله التوفيق والسداد .

خاطرة :

أم حرام

[فى جزيرة قبرص قبر « أم حرام » ويسميه الناس هناك قبر المرأة الصالحة ، فهل تعرف قصتها ؟]

هى زوجة عبادة بن الصامت ، رضى الله عنهما ...

زارهما رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، وكان الوقت وقت قيلولة والحر شديد ، فنام قليلا ثم استيقظ وهو يضحك ، فقالت أم حرام : « مايضحكك يارسول الله ؟ » قال : « ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله عز وجل ، يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة !! » تقول أم حرام : فقلت يارسول الله : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فدعا لها . ثم وضع رأسه وغلبته سنة أخرى من النوم ، ثم استيقظ وهو يضحك ، فقلت : مايضحكك يارسول الله ؟ قال : « ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله عز وجل ... » كما قال فى الأولى . فقلت : ادع الله يارسول الله أن يجعلنى منهم . قال : « أنت مع الأولين » .

***

وإنك لتطالع مع روعة النبوءة فى وجه النبوة الضاحك ، جمال النفس الكبيرة فى المرأة الصالحة ... جمال التصديق الذى استقبلت به البشرى ... وجمال « الأمنية » أن تكون مع غزاة البحر فى سبيل الله !!

***

ومرت أيام وسنون ، ولى فيها الحكم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ، رضوان الله عليهم جميعا ، ثم ولى الحكم معاوية ، وكتب الله أن يشهد البحر غزو الإسلام ، وركبه عبادة بن الصامت فى نفر من المسلمين ، وركبته معه أم حرام ... وأخذتها نشوة الإيمان والسفينة تميل بها الأمواج ، فحدثت أصحابها بالذى كان بينها وبين النبى ، وهم يستمعون إليها فى دهشة من أمرها ، وفى إعجاب بمكانها الذى خصها به النبى ، وساقتها إليه ، أو ساقتها إليها ، دعوته المباركة التى يشهدون برهان صدقها ماثلا يأخذ النفس ! !

***

ووصل الركب إلى قبرص ، ونزلت أم حرام من السفينة ، وقدموا لها بغلة تركبها ، فجمحت البغلة وصرعت أم حرام ، ودفنت يوم خرجت من البحر ، ولايزال قبرها هناك... وهكذا يأبى فضل الله أن تصدق دعوة النبوة فى ركوب البحر وحده ... فرزقها أجر الشهداء حتى تكون فيمن رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الملوك على الأسرة ! ألم يقل لها : « أنت مع الأولين » ؟ !

ياعين النبوة : تبارك هذا النور الذى تنظرين به ...

وأنتم يا أتباع النبى : خذوا زادكم من هذا النور !!

الآثار العلمية للمذاهب

للأستاذ الدكتور محمد معروف الدواليبي

لم تلبث الحقوق الإسلامية أن أفادت قبل أى علم آخر من الحركة العلمية التى انبعثت بعد عهد الصحابة ، واندفع العلماء فى حركة تأليف فى الحقوق لم يُعهد لها مثيل فى التاريخ ، وتركوا ثروة علمية فى هذا الميدان لا يمكن أن تضاهيها ثروة أخرى لدى أمة من الأمم ؛ ويرجع الفضل فى ذلك إلى ثلاثة عوامل أساسية سنأتى على ذكرها فيما يلى :

أما العامل الأول : فهو كون الاجتهاد أصلاً من أصول الشريعة الإسلامية ، ومصدراً من مصادرها . وقد تُركت هذه السلطة لحرية القضاء ومواهب العلماء ، فكان ذلك أعظم حافز للبحث والتأليف وتدوين كل قاض وعالم ما لديه من علم واجتهاد . ولم يشأ العلماء فى وقت من الأوقات حينذاك أن يغلقوا باب الاجتهاد وأن يوقفوا تلك الحركة العلمية وأن يحملوا الناس على مذهب واحد .

ولقد جاء عن الإمام مالك أنه قال : « لما حج المنصور قال لى : قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ؛ ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين نسخة منها ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره . فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورددوا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ودانوا به ؛ فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم[1] » .

وكذلك روى عن الإمام مالك أنه قال : « شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه . فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب[2] » .

---

(١) فجر الإسلام ، للأستاذ أحمد أمين ص ٢٢٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٣٦٤هـ .

(٢) نفس المرجع قبله .

وأما العامل الثانى لهذه الوفرة العجيبة فى المؤلفات الحقوقية : فهو ازدهار الاجتهاد فى آن واحد تقريباً فى جميع أقطار المملكة الإسلامية الشاسعة ، لأن هذه الأقطار المختلفة فى عاداتها ، والمتباينة فى شروط حياتها الاقتصادية ، والممتدة من الأندلس إلى أبواب الصين ، كان لديها الكثير من المسائل والقضايا الجديدة التى لم يتناولها الكتاب والسنة . وكان لا بد للعلماء من الاجتهاد فى تلك القضايا وتخريج أحكامها . وهكذا ، فقد انتشرت مراكز علم الفقه الإسلامى فى أعظم عواصم العالم الإسلامى من القارات الثلاث : فى الأفغان على حدود الصين ، وفى نيسابور من بلاد العجم ، وفى بغداد والكوفة والبصرة من العراق ، وفى دمشق وحمص من سوريا ، وفى المدينة ومكة من الحجاز ، وفى مدينة الفسطاط من مصر ، وفى القيروان من تونس ، وفى قرطبة وغرناطة وطليطلة من الأندلس ، وفى غير ذلك من المدن التابعة لهذه العواصم الكبرى .



وأما العامل الثالث أيضاً للزيادة فى هذه الثروة الحقوقية : فهو الحج ؛ فقد اتخذ العلماء منه مؤتمراً علمياً سنوياً يحج إليه العلماء من سائر تلك الأقطار وهاتيك العواصم ، ليعرض كل منهم ما لديه من نتاج علمى ورأى اجتهادى وحادث واقعى ، وليتبادلوا الرأى فى ذلك ، وليأخذ بعضهم عن بعض .

ولا يخفى على أحد ما لهذه المؤتمرات السنوية العالمية العلمية حينذاك من أثر عظيم فى زيادة البحث العلمى وحركة التأليف فيه .

وهكذا ، وتحت تأثير هذه العوامل الثلاثة الأساسية تكونت المكتبة الإسلامية الحقوقية الواسعة ، فكانت فى ذلك مجموعة من قرائح مختلفة من الشرق إلى الغرب ، ومعبرة عن وقائع حقوقية ، لا فى قطر واحد ، وإنما فى أقطار القارات الثلاث من العالم القديم ، وفى مراكز المدنيات السامية منها .

ولذلك لا عجب بعد اليوم أن نجد الفقه الإسلامى وما دوّنه فيه أولئك العلماء العظام مجموعة واسعة فى الحقوق ، ما عُرف ولن يعرف لها مثيل فى وفرتها وغزارة مسائلها ؛ وقد انصرف العلماء فيها منذ ذلك الحين ليضفوا عليها جميعاً روح القرآن

والسنة فى قواعدها العادلة ، ومبادئهما السامية ، حتى وصلتنا اليوم وكأنها صبت فى قالب واحد أو أحكمت فى نسق واحد ، على الرغم من اختلاف رجالها فى الأقطار والأفكار .

التنويع فى المؤلفات الحقوقية :

ليس من الممكن لى فى مثل هذا المقام أن أصف للقارئ — ولو بإيجاز — الكتب الهامة النفيسة التى دبجتها أقلام أولئك العلماء العظام ، ولذلك سأكتفى بالإشارة إلى ما كان فى تلك المؤلفات من تنويع فى العرض والتأليف ، وهى لا تتجاوز فى الجملة سبعة أنواع .

وفى مقدمة هذه الأنواع مجموعات من الحديث والسنة النبوية ، وقد صنف ما فيها من الأحكام إلى أقسام تبعاً للمطالب الهامة من أحكام الفقه ، ووضعت تلك الأحكام فى كتب ، وقسمت تلك الكتب إلى أبواب ؛ ويضاف أحياناً بعد ذلك إلى تلك الآثار بعض الأحكام والوقائع التى اعتبرها المؤلف من الأشباه والنظائر ، أو حكم فيها تبعاً للمبادئ العامة التى رواها . وخير مثال على هذا النوع من التأليف هو كتاب الإمام مالك الذى أطلق عليه اسم « الموطأ » .

ويأتى فى ثانى هذه الأنواع مؤلفات فقهية ، الغرض منها معرفة الأحكام فقط ، وقد وضعت تبعاً للمذهب الذى ينتمى إليه المؤلف ، وصنفت أيضاً فى كتب وأبواب .

وخير مثال على هذا هو ذلك الكتاب العظيم مادة ومعنى الذى ألفه الإمام محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبى حنيفة ، وأطلق عليه اسم « المبسوط » ، وجمع فيه عشرات من ألوف المسائل[1] ، ومنها ألوف من المسائل استنبط أبو حنيفة أجوبتها ، ومنها ما خالفه فيها أبو يوسف ومحمد[2] .

ومن عادة محمد فى ذلك الكتاب أن يبدأ الباب بما عندهم من الآثار ،

---

(١) تاريخ التشريع ، للاستاذ الخضرى ص ٢٨٣ ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٣٩هـ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٠٤ .

ثم يذكر مسائله ، وكثيراً ما يختم بذكر المسائل التى اختلف فيها أبو حنيفة وابن أبى ليلى من هذا الباب . وهو خلو من تعليل الأحكام(١) .

وفى نوع ثالث من المؤلفات كتب فى الآثار فقط جمعها بعض علماء المذاهب ، ووضعوا فيها جميع الآثار التى يحتج بها أئمة المذاهب .

وخير مثال على ذلك كتاب للإمام محمد أيضاً أطلق عليه اسم « كتاب الآثار » وجمع فيه الآثار التى يحتج بها أئمة الحنفية(٢) .

وفى نوع رابع من المؤلفات تأتى كتب النقد العلمى الحقوق ، وقد وضعها أصحابها لمناقشة آراء مخالفيهم ، وإظهار مواطن الضعف فيها ، والتدليل على رجحان ما ذهبوا إليه .

وخير مثال على ذلك كتاب للإمام محمد أيضاً أطلق عليه اسم « الرد على أهل المدينة » ، والكتاب عبارة عن مسائل خالف أبو حنيفة فيها أهل المدينة ؛ وقد روى هذا الكتاب الإمام الشافعى فى « الأم » ، وتعقَّب هو بدوره أيضاً كل مسألة فيه ، إما انتصاراً لأهل المدينة ، وإما موافقة لرأى أبى حنيفة ، وإما رداً عليهما على السواء ؛ وقد جاء ذلك خير مثال لكتب النقد الحقوق ، الذى يمنح قارئه لا علماً فقط بمسائل الخلاف وبطريقة النقد ، بل يمنح قارئه فوق ذلك ذوقاً حقوقياً دقيقاً لا يستطيع الحصول عليه فى أى مؤلف من المؤلفات الحقوقية ، ولا فى أى نوع آخر من الدراسات ؛ وإليك مثالاً عنه فى إحدى مسائله :

(باب : الرجل يمسك الرجل للرجل حتى يقتله)

« قال أبو حنيفة رضى الله عنه فى الرجل يمسك الرجل للرجل فيضرب بسلاح فيموت مكانه : إنه لا قود على الممسك ، والقود على القاتل ، ولكن الممسك يوجع عقوبة ويستودع فى السجن .

وقال أهل المدينة : إن أمسكه وهو يرى أنه يريد قتله ، قتلا به جميعاً .

(١) تاريخ التشريع ، للأستاذ الخضرى ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٣٩ هـ

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٠٩ .

« وقال محمد بن الحسن : كيف يُقتل الممسك ولم يَقتل ؛ وإذا أمسكه وهو يرى أنه لا يريد قتله فتقتلون الممسك ؛ فإن قالوا لا إنما نقتله إذا ظن أنه يريد قتله ، قيل لهم فلا نرى القود فى قولكم يجب على الممسك إلا بظنه ، والظن يخطىء ويصيب ! ! أرأيتم رجلاً دل على رجل فقتله ، والذى دل يرى أنه سيقتله إن قدر عليه ، أتقتلون الدال كما تقتلون الممسك ؟ أريتم رجلاً أمر رجلاً بقتل رجل فقتله ، أيُقتل القاتل والآمر ؟ أرأيتم رجلاً حبس امرأة لرجل حتى زنى بها أيحدان جميعاً ، أو يحد الذى فعل الفعل ؟ فإن كانا محصنين ، أيرجمان جميعاً ؟ ينبغى لمن قال يُقتل الممسك أن يقول : يقام الحد عليهما جميعاً ! أرأيتم رجلاً سقى رجلاً خمراً ، أيحدان جميعاً حد الخمر ، أم يحد الشارب خاصة ؟ أرأيتم رجلاً أمر رجلاً أن يفترى على رجل ، فافترى عليه ، أيحدان جميعاً ، أم يحد القاذف خاصة ؟ ينبغى فى قولكم أن يحدَّا جميعاً ! ! أخبرنا إسماعيل بن عباس الحمصى ، قال أخبرنا عبد الملك بن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى رجل قتل رجلاً متعمداً ، وأمسكه آخر ، فقال : يقتل القاتل ويحبس الآخر فى السجن حتى يموت .

قال الشافعى رحمه الله تعالى : حد الله الناس على الفعل نفسه وجعل فيه القود ، فقال تبارك وتعالى : « كتب عليكم القصاص فى القتلى » وقال : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا » فكان معروفاً عند من خوطب بهذا الآية أن السطان لولى المقتول على القاتل نفسه ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من اعتبط مسلماً بقتل ، فهو قود يده » وقال الله تبارك وتعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . » وقال : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » ولم أجد أحداً من خلق الله تعالى يُقتدى به حدَّ أحداً قط على غير فعل نفسه أو قوله . فلو أن رجلاً حبس رجلاً لرجل فقتله ، قتل القاتل وعوقب الحابس ، ولا يجوز فى حكم الله تعالى إذا قتلتُ القاتل بالقتل أن أقتل الحابس بالحبس ، والحبس غير القتل . ومن قتل هذا فقد أحال حكم الله عز وجل لأن الله إذ قال : « كتب عليكم القصاص فى القتلى » ، فالقصاص أن يفعل بالمرء مثل مافعل ، هل ثم قتل فيقتل به ؟ وإنما ثم حبس ، والحبس معصية ، وليس فيها القصاص فيعزر فيها ،

وسواء حبسه ليقتله أو لا ليقتله ؛ ولو كان الحبس يقوم مقام القتل إذا نوى الحابس أن يقتل المحبوس انبغى لو لم يقتل أن يقتله ، لأنه قد فعل الفعل الذى يقيمة مقام القتل مع النية ، ولـكنه على خلاف ما قال صاحبنا — مالك بن أنس — وعلى ما قال محمد بن الحسن فى الجملة .

« وعامة ما أدخل محمد بن الحسن على صاحبنا يدخل عليه ، وأكثر منه ؛ ولـكن محمداً لا يسلم من أن يغفل فى موضع آخر فيدخل فى أكثر مما عاب على صاحبنا ، فيكون جميع ما احتج به على صاحبنا فى هذا الموضع حجة عليه . فإن قال قائل : وما ذلك ؟ قيل : يزعم أن قوماً لو قطعوا الطريق فقَتَلوا ، ولهم رِدء حيث يسمعون الصوت وإن كانو إلا يرون ما فعل هؤلاء من القتل ، قُتِل القاتلون بقتلهم ، والردء بأن هؤلاء قتلوا بقوتهم ! قال الشافعى رحمه الله : فقلت لمحمد بن الحسن أوَ رويت فى هذا شيئاً ؟ فلم يذكر رواية ، فقلت له : أرأيت رجلاً شديداً أراد رجلٌ ضعيف أن يقتله فقال لرجل شديد : لولا ضعفى قتلت فلانا ، فقال : أنا أكتفه لك ، فكتفه وجلس على صدوره ورفع لحيته حتى أبرز مذبحه وأعطى الضعيف سكيناً فذبحه ، فزعمت — أى قياساً على ما جاء فى رده على أهل المدينة — أنك تقتل الذابح لأنه هو القاتل ، ولا تلتفت إلى معونة هذا الذى كان سببه ، لأن السبب غير الفعل وإنما يؤاخذ الله الناس على الفعل ، أكان هذا أعون على قتل هذا ، أو الردء على قتل من مر فى الطريق ؟ ثم تقول فى الردء لو كانوا حيث لا يسمعون الصوت ، وإن كانوا يرون القوم ويعززونهم ويقوونهم ، لم يكن عليهم شىء إلا التعزير ! ! فمن حدّ لك حيث يسمعون الصوت ؟ قال : فصاحبكم معى يقول مثل هذا فى الردء يقتلون ؛ قلت : فتقوم لك بهذا حجة على غيرك إن كان قولك لا يكون حجة ؟ أفيكون قول صاحبنا الذى تستدرك عليه مثل هذا حجة ؟ قال : فلا تقوله ؟ قلت : لا ، ولم أجد أحداً يعقل يقوله ، ومن قاله خرج من حكم الكتاب والقياس المعقول ، ولزمه كثير مما احتججت به ! فلو كنت إذا احتججت فى شىء ، أو عبته ، سلمت منه ، كان[1] » .

وعلى هذا النمط البديع من النقاش ، وقوة الحجاج عند الطرفين ، يجرى

---

(١) تاريخ التشريع للأستاذ الخضرى ص ٣٠٥ — ٣٠٩ .

الـكتاب فى جميع مسائله . ولعمرى إنه ثروة حقوقية ثمينة ، وإنه لجدير بكل حقوقى ألا يغفل عن مطالعته .

وفى نوع خامس من هذه المؤلفات النفيسة ، تأتى كتب فى المقارنة ما بين الأحكام لدى بعض المذاهب أوجلها ، وهو الذى يعرف اليوم بعلم الحقوق المقارن .

ومن خير أمثلتها أيضاً كتاب للإمام محمد استعرض فيه « الموطأ » للإمام مالك ، وعقب أحاديثه بما عليه العمل عند أبى حنيفة موافقاً أو مخالفاً ، وبين السبب الذى من أجله كان الخلاف[١] .

وإن هذا النوع من المؤلفات فى علم الحقوق القارن قد أهتم به العلماء فيما بعد اهتماماً عظيماً ، وأصبح علماً مستقلاً يطلق عليه اسم « علم الخلاف » وتناول فى المقارنة المذاهب الأربعة الـكبرى كلها . وأشهر كتاب فى ذلك هو كتاب « بداية المجتهد » للعلامة قاضى قرطبة . الفيلسوف ابن رشد .

وفى نوع سادس من هذه المؤلفات الحقوقية البديعة تأتى الـكتب الـكثيرة المعروفة التى تجمع مسائل مذهب من المذاهب ، مصحوبة بما تعتمد عليه من أصول ، وما تتطلبه من تدليل ، وما تستدعيه عند الاقتضاء من نقاش للآراء المخالفة . وإن أحسن مثال لهذا النوع هو ذلك الـكتاب العظيم « الأم » للإمام الشافعى الذى سبق ونقلنا عنه نموذجاً حول كتاب الإمام محمد فى « الرد على أهل المدينة » ، وتبينا منه فى الوقت نفسه خطة الشافعى فى تقرير مذهبه والدفاع عن مسائله .

وآخر هذه الأنواع وسابعها ، هى تلك الـكتب العلمية الفلسفية المبتكرة التى وضعها المجتهدون والفقهاء فى علم أصول الفقه لبيان مصادر الشريعة وأصولها لدى كل مذهب ، وبشرح الطريقة الاجتهادية لدى كل منها ، وما بنيت عليه كل طريقة من قواعد وقوانين ، بها امتازت عن غيرها ، وعليها قامت دعائم المذهب ، مصحوبة تلك القواعد بكثير من الأمثلة والأحكام كشرح وإيضاح .

ولقد كان للإمام الشافعى شرف البدء فى التأليف فى هذا النوع الهام المبتكر ، فوضع فى ذلك « الرسالة » وتبعه العلماء بعد ذلك ، حتى نضج هذا النوع من التأليف ، واستقل تحت اسم خاص من العلوم أطلق عليه فيما بعد « علم أصول الفقه » .

(١) تاريخ التشريع للأستاذ الخضرى ص ٣٠٩ .

الطريق إلى مكة

للأستاذ محمد أسد

بيني وبين وايزمان

[يتحدث الكاتب فى هذا الفصل من مؤلفه (الطريق إلى مكة) الذى يعكف الآن على إخراجه متضمناً تاريخ حياته ، عن زيارته الأولى للشرق الأوسط (١٩٢٢/٢٣) قبل نحو أربع سنوات من اعتناقه الإسلام]

ترى ماذا كان مبلغ علم الرجل من أوساط الأوروبيين عن العرب فى تلك الأيام ؟ (١٩٢٢) لا شىء فى الواقع !

لقد كان أحدهم إذا زار الشرق الأوسط حمل معه جملة الأوهام الخيالية الخاطئة التى اعتادها عن هذه البلاد . فإذا اتفق أن كان سليم القصد نزيه التفكير فلا بد وأن يقر بأنه لم تكن لديه أية فكرة صحيحة عن العرب أهل تلك البلاد .

وأنا كذلك لم أكن أتصور قبل زيارتى لفلسطين أنها بلاد عربية . بل كنت أحسب أن بعض الأعراب يعيشون هناك ، إلا أننى كنت أخالهم بدواً رحّلا ، ينزلون الخيام ويجوبون الصحارى ، أو أهل واحات ركنوا إلى ظلالها ، وألفوا فيها التغنى بأخيلتهم فى أهازيج الرعاة ، فقد كان جل ما قرأته من قبل عن فلسطين من كتابات الصهيونيين ، وهؤلاء لم تكن نظرتهم بطبيعة الحال ترى من قضيتها سوى الجانب الذى يعنيهم ، ولذلك لم أتحقق قبل تلك الزيارة أن المدن أيضاً كانت آهلة بسكانها من العرب ، وأن العرب فى الواقع كانوا سنة ١٩٢٢ خمسة أضعاف اليهود عدداً فى فلسطين ، وأن البلاد كانت أدنى أن تكون عربية خالصة من أن تكون بلداً لليهود ..

عند ما قابلت استشكن (Ussyshkin) رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية فى ذلك الوقت أبديت له ملاحظتى عما لمسته من ميل الصهيونيين إلى التهوين من شأن الأكثرية

العربية وهى حقيقة واقعة ، والاستخفاف بمقاومة العرب للفكرة الصهيونية . فما كان فى رده غير الازدراء للعرب إذ قال : « لا توجد هنا حركة عربية حقيقية ضدنا — أعنى حركة عميقة الجذور فى نفوس الناس — وكل ما تعتبره مقاومة لا يعدو فى الواقع صيحات نفر من المحرضين المثيرين ، لن تلبث أن تضمحل فى بضعة أشهر أو على أكثر تقدير فى بضع سنين » .

لم تكن هذه الإجابة لتقنعنى أو ترضينى ، إذ أحسست منذ البداية أن فكرة استقرار اليهود فى فلسطين واستعمارهم إياها فكرة مصطنعة ، والأدهى من ذلك خطرها من حيث نقل التعقيد الشائك فى الحياة الأوروبية ومشكلاتها المستعصية إلى بلاد لعله كان أسعد لها وأرغد لو ظلت منها بنجوة . إن نزوح اليهود إلى فلسطين لم يكن فى الحقيقة عودة إلى وطن ألفوه ونشأوا فيه ، ولذلك كان عليهم أن يعملوا منها الوطن الذى رسموه فى مخيلتهم أوروبياً فى نسقه ونزعته . لقد كانوا فى الدار وهم عنها غرباء ، ولذلك رأيت أن العرب لا يلامون فى تصميمهم على مقاومة فكرة إقامة الوطن القومى اليهودى بين أظهرهم ، بل على العكس ، فالعرب قد بُغى عليهم ، وهم على حق واضح فى دفع هذا البغى عن أنفسهم .



لقد تبينت فى تصريح بلفور سنة ١٩١٧ الذى وعد اليهود وطنا قومياً فى فلسطين مناورة سياسية قاسية ، أُحكمت لتتعهد المبدأ القديم المعروف لدى القوى المستعمرة جميعا (فرق تسد) ، ولقد كان تطبيق هذا المبدأ فى فلسطين أفظع من تطبيقه سنة ١٩١٦ حين وعد البريطانيون الشريف حسين أمير مكة حينئذ مملكة عربية مستقلة تمتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج الفارسى نظير مساعدته لهم ضد الأتراك ؛ إذ لم يكتفوا بنقض هذا الاتفاق بمعاهدة سايكس بيكو السرية التى أبرموها مع فرنسا (وبمقتضاها خُوِّلت فرنسا الاستيلاء على سوريا ولبنان) بل لحوا باستثناء فلسطين من التزاماتهم التى تعهدوا بها للعرب .

لقد أحسست من نفسى منذ البداية ببرم شديد بالصهيونية رغم أنى من أصل يهودى — بغضّ النظر عن عاطفتى نحو العرب — فقد كنت أعتبر من التنكر للمثل العليا أن يؤم البلاد المهاجرون من شتى الأقطار بمساعدة قوى أجنبية عالية هائلة بقصد مستعلن

سافر يتجه إلى تكوين أغلبية فى البلاد تمتلكها دون أهلها الذين لم تزل موطناً لهم منذ القدم ؛ ولذلك كنت أميل إلى الوقوف بجانب العرب كلما أثيرت قضية فلسطين ؛ وكثيراً ما كانت تثار(١) .

كان هذا الموقف الذى التزمته يبدو غريباً على أفهام جميع اليهود الذين اتصلت بهم خلال تلك الأشهر ، وكانوا يعجبون لنظرتى هذه إلى العرب الذين لم يكونوا فى اعتبارهم سوى جماعة متأخرة من الناس لا يختلف شعورهم نحوهم كثيراً عن شعور الأوروبيين المستعمرين نحو الزنوج فى أواسط أفريقيا ، فلم يكونوا يحفلون قط بوضع العرب فى القضية ، بل لا تكاد تجد أحداً جشّم نفسه تعلم العربية ؛ وكلهم كان يتقبل الفكرة التى تزعم أن فلسطين تراث شرعى لليهود دون مناقشة .

إننى لا أزال أذكر حواراً قصيراً لى فى هذه القضية مع الدكتور حايم وايزمان ، زعيم الحركة الصهيونية حينئذ غيرمنازع ، لما نزل فلسطين مرة فى إحدى زياراته وقابلته فى بيت صديق من اليهود (أعتقد أن لندن كانت محل إقامته الدائم) والحق أن المرء لم يكن بوسعه إلا أن يؤخذ بالحيوية الفائقة فى هذا الرجل -- تلك الحيوية التى تتمثل حتى فى حركات جسمه ، فى خطواته الواسعة المرنة التى كان يذرع بها الغرفة جيئة وذهاباً ؛ وبالقوة العقلية التى تبدو فى جبهته العريضة ونظراته الثاقبة .

كان يتحدث عن الصعوبات المالية التى كانت تعترض ذلك الحلم بالوطن القومى اليهودى فى فلسطين وقلة غناء استجابة الناس لهذا الأمل فى الخارج ، وقد اعترانى الضيق إذ رأيت حتى وايزمان كغيره من الصهيونيين ميالاً إلى أن يعزو المسئولية فى كل ما كان يحدث فى فلسطين إلى « العالم الخارجى » وألفيتنى مدفوعاً إلى اقتحام الإصغاء الشامل الذى كان يملك جميع الحاضرين ، فسألته : « هلا فكرت فى العرب ؟ » .

ولا بد أنى اقترفت زلة عندهم بإقحامى نغمة نشازاً فى ذلك الحديث . فقد استدار الدكتور وايزمان بوجهه نحوى فى بطء ، ووضع فنجان الشاى من يده مردداً سؤالى : « هلا فكرت فى العرب ؟ . . » .

---

(١) انظر العدد الأول من السنة الثالثة من مجلة المسلمون ص ٢٤ و ٢٥ «رسالة من محمد أسد»

فأردفت قائلاً « أجل ، كيف تأملون أن تجعلوا من فلسطين وطناً لكم فى وجه مقاومة عنيفة من العرب الذين هم على أى حال أكثرية أهل البلاد » .

وهنا هز الزعيم الصهيونى كتفيه وأجاب فى جفاء ظاهر : « إننا نتوقع ألا يكونوا أكثرية فى سنين قلائل » .

قلت له : « قد يتم ذلك كما تقول ، فلا بد أنك تدرى من هذا الأمر ما لا أدريه إذ لم تزل تمارس هذه القضية منذ سنوات . ولكن بغض النظر عن الصعوبات السياسية التى قد تنجم عن مقاومة العرب ، ألا تجد فى نفسك اهتماما بالناحية الإنسانية الخلقية فى هذه القضية ؟ ألا ترى فى طرد أناس من بلادهم التى لم يزالوا يسكنونها منذ القدم فعلاً خاطئاً من جانبكم ؟ » .



فأجاب الدكتور وايزمان وهو يرفع حاجبيه « ولكنها بلادنا نحن ، وإننا لا نعدو بذلك استرداد ما كان أخذ منا بغير حق » .

قلت : « غير أنكم ما زلتم بعيدين عن فلسطين طوال ألفين تقريباً من السنين ، وقبل ذلك كانت مدة حكمكم للبلاد أقل من خمسمائة سنة ، ولم يشملها كلها إلا فى فترة وجيزة منها . أفلا ترى أن العرب يحق لهم بهذا المنطق المطالبة بأسبانيا إذ حكموها سبعمائة سنة تقريباً ، ولم تدل دولتهم فيها نهائياً إلا منذ خمسمائة سنة فقط » .

هنا بدأ الدكتور وايزمان كأنما ضاق بى ذرعاً وقال : « محال ؟ إنما غزا العرب أسبانيا ولم تكن موطناً لهم من قبل ، ولقد كان وجه الحق أن يخرجهم الأسبان منها ».

فدفعت زعمه قائلا « عفوك يا دكتور ، يبدو لى هنا خطأ تاريخى ، إن العبرانيين على أى حال قدموا فلسطين غزاة أيضاً ، ولقد توطن قبلهم فيها لعصور خلت كثير من القبائل السامية وغير السامية ، ومنهم الأموريون والأدوميون والفلسطينيون والموأبيون والحيثيون ؛ وقد ظلت هذه القبائل مقيمة فى فلسطين حتى فى أيام مملكتى إسرائيل ويهودا ، ولم يزالوا كذلك إلى ما بعد طرد الرومان أسلافنا من هذه الديار ، وهم أولاء يعمرونها حتى يومنا هذا » .

إن العرب الذين أقاموا فى سوريا وفلسطين بعد الفتح الإسلامى فى القرن السابع

الميلادى إنما كانو أقلية ضئيلة فى السكان ، أما البقية الذين يطلق عليهم اسم (العرب السوريون أو الفلسطينيون) إنما هم فى الحقيقة المستعربون من سكان البلاد الأصليين ، وقد دخل بعضهم فى الإسلام على مر القرون وظل الآخرون على مسيحيتهم ، ولا شك أن المسلمين منهم اختلطوا بإخوانهم فى الدين من العرب بالمصاهرة .

أبعد هذا تنكر أن جملة سكان فلسطين — أعنى كل من يتكلم منهم العربية سواء المسلم والمسيحى — هم النسل المباشر لسكان البلاد الأصليين : (الأصليين) بمعنى أنهم توطنوا البلاد حتى قبل العبرانيين ؟ ! » .

ولم يملك وايزمان بعد هذا إلا أن يبتسم ، وأدار بلباقة دفة الحديث إلى موضوعات أخرى .



الخصال الأربع

عن عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها :

إذا اؤتمن خان

وإذا حدث كذب

وإذا عاهد غدر

وإذا خاصم فجر

« رواه البخارى »

وقد لعمرى رأينا الخصال الأربع كلها مجتمعة . . . ! !

« التحرير »

من القديم :

التصوف والأخلاق

للإمام الشهيد حسن البنا

معنى التصوف

يراد بالتصوف الزهد فى الدنيا والالتفات إلى الآخرة والاجتهاد فى طاعة الله تعالى .

أو يراد به تطهير النفس من أدران البشرية حتى تصفو وتشرق وتكون مرآة للحقائق الربانية والأسرار الإلهية .

أو يراد فناء العارف عما سوى الله تعالى فلا يرى موجوداً بذاته غيره .

أو يراد به اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله .

أو يراد به هذه المعانى كلها لتلازمها واتصالها وترتب بعضها على البعض الآخر .

وهذا المعنى هو الذى يقصده شيوخ الصوفية المحققون رضوان الله عليهم لايعد لون به إلى غير ذلك ، وأقوالهم فى تعريف التصوف وحده تؤيد هذا القصد :

قال الإمام أبوالقاسم الجنيد بن محمد قدس الله سره : التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به . وقال : هو أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقال أبو بكر الشبلى رضى الله عنه : الصوفى منقطع عن الخلق متصل بالحق .

وقال بعض الشيوخ : وهو الدخول فى كل خُلُق سنى والخروج من كل خلق دنىّ ، أو هو أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم مع قوم كرام .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله دون البشر ، واستوى عنده المال والمدر .

وقال الشيخ أحمد بن عجيبة رضى الله عنه فى شرحه لمنظومة المباحث فى تعريف

الصوفى وذكر خصائصه : الناس ثلاثة : عالم ، وعابد ، وعارف ، وكلهم قد أخذ حظا من الوراثة النبوية ؛ فالعالم ورث أقوال النبي صلى الله عليه وسلم علما وتعليما بشرط إخلاصه وإلا خرج من الوراثة بالكلية . والعابد ورث أفعاله صلى الله عليه وسلم من صيام وقيام ومجاهدة . والصوفى ورث العلم والعمل وزاد عليهما بوراثة الأخلاق التى كان عليها باطنه صلى الله عليه وسلم من زهد وورع وخوف ورجاء وصبر وحلم ومحبة ومعرفة . . . الخ .

وقد يطلق التصوف ويراد به الأذواق والمواجد ونتائج الكشف التى تعرض للسالكين وتلوح للسائرين . وهذا المعنى خاص بصاحبه لايصح أن يظهره أو يكتبه أو يشير إليه ، ولا يصح أن يُتخذ حكما شرعيا ولا حجة لحكم ، ولا يمكن أن تصوره العبارة أو تحده اللغة ؛ لأنه من الأذواق التى لا تتناولها مدلولات الألفاظ . وإلى هذا الإشارة بقول بعض الشيوخ : « علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة فنى » .

ويقول صاحب منظومة المباحث الأصلية :

ووضعه فى الكتب لا يجوز　　بل هو كنز فى النهى مكنوز
إياك أن تطمع أن تحوزه　　من دفتر أو شعر أو أرجوزه

وهذا هو المسمى بعلم المكاشفة . وهو أمر شخصى يتعلق بصاحبه فقط وتتناوله الأحكام العامة ؛ فإن أظهر منه شيئا يوافق الأحكام الظاهرة والعامة سلم له ، وإن كان مخالفا لها أقيمت عليه حدودها .

وقد يقصد بعض الناس من إطلاق لفظ التصوف معنى ثالثا عماده المذاهب الفسلفية والآراء النظرية ، وهو نتيجة ربط الأذاوق والمواجد بهذه العلوم وخلطها بأحكامها وقواعدها . ويتأدى الباحثون فى التصوف بهذا المعنى إلى الوحدة والحلول وغيرها من الآراء الفلسفية الصرفة . والتصوف بهذا المعنى أمر فلسفى عقلى لا صلة له بالإسلام ألبتة ، ولم يكن على عهد السلف الصالح ، ولم يتكلم فيه كبار الصوفية ؛ وإنما هو علم أوجده اتساع العلوم واستبحار العمران وترجمة كتب الأمم الأخرى واختلاط

قواعد علومها بعلوم الإسلام كما وقع فى علم الكلام . وقد يؤدى بصاحبه إلى الخروج عن عقيدة أهل الإسلام وهو يظن أنه من خاصتهم .

وقد كان النص فى التصوف بهذا المعنى سببا لبلاء كبير فى المسلمين ، وتكأة لكل إباحى يتلمس السبيل إلى نيل شهواته تحت ستار من العقائد ، أوملحد يريد أن يهدم الإسلام بتصيد الشبهات ، أو معطل يحاول التلخص من تكاليف الكتاب والسنة ؛ فعليك أن تتمسك بمدلول المعنى الأول وتعمل به فينكشف لك سر المعنى الثانى ، واحذر أن يلتبس عليك الطريق فتكون ممن يفهمون التصوف بالمعنى الثالث ، وسل الله دائما أن يلهمك رشدك فإن مزالق الطريق كثيرة . والله حسبنا ونعم الوكيل .



وصية ابن عباس

عن مجاهد قال : أوصانى ابن عباس بخمس قال : لاتتكلمن فى مالايعنيك فإنه أقرب لك من السلامة ولا آمن عليك الخطأ ، ولا تتكلمن فيما يعنيك حتى ترى له موضعاً ، فرب متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فلقى عنتاً ، ولا تمارى حليما ولا سفيهاً : أما الحليم فيقليك ، وأما السفيه فيؤذيك ، واخلف أخاك إذا غاب عنك بمثل ما تحب أن يخلفك به إذا غبت عنه ، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، واعمل بعمل رجل يعلم أنه مكافأ بالإحسان ، مأخوذ بالإساءة .

من تاريخنا الحديث :

كارثة فلسطين

الأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

(٣)

أخذ الشعور بخطر «الصهيونية» يزداد بتزايد أعداد المهاجرين إلى «فلسطين» ، على إثر استيلاء رجال «الحزب الوطنى الاشتراكى» على مقاليد الحكم فى ألمانيا عام ١٩٣٣ ، وقيامهم بتطهير وطنهم من اليهود ، لما ظهر منهم من الغدر والخيانة فى أثناء الحرب العالمية الأولى . فبينما كان عدد المهاجرين فى عام ١٩٣١ ٢٥٠٠ فقط إذا به يرتفع فى الأعوام التالية فيصير فى سنة ١٩٣٢ ٩٥٥٠ ، ثم فى سنة ١٩٣٣ ٣٠٣٢٧ ، ثم يثب فى سنة ١٩٣٤ فيصير ٤٢٣٥٩ ، وفى سنة ١٩٣٥ يبلغ ٠٦١٨٢٤ ورحبت الدول الأوربية ، ومن بينها إنجلترا ، بتحويل المدد الأكبر من النازحين إلى الشرق الأوسط ، لأنها فى نفس الوقت الذى تتظاهر فيه بالعطف عليهم تريد أن تتخلص منهم من بلادها ، ولا تقصد أن تنصفهم إلا على حساب غيرها : أى العرب ، ذوى الحمى المستباح !

لم يكن بد إذن ، وسكان فلسطين يرون أنهم قد أُغرقوا ويُغرقون بأمواج المهاجرين المتتابعة ، من أن يقوموا بثورة عارمة ، أرادوا بها الإعلان عن حقهم والذودَ عن كيانهم ، ومحاولة إيقاظ ضمير العالم الميت ، الذى خنقته المطامع والشهوات والأحقاد ، الناشئة عن التعصب القومى والدينى والإغراق فى عبادة المادة ، والأثرة الموبقة : تلك الصفات التى تتجلى فى نفوس الأوربيين والأمريكيين ، من مسيحيين ويهود . فكانت إذن ثورة العرب الكبرى فى عام ١٩٣٦ التى استمر فيها إضرابهم ستة أشهر كاملة ، وخرج أبطالهم يقاتلون فى الجبال والوديان ، فكانت الطائرات

الإنجليزية تدك معاقلهم وقراهم بالقنابل دكا ! وهكذا أصبحت فلسطين — الأرض المقدسة — فى حالة حرب . وكان أول أثر لذلك هبوط نسبة الهجرة فى السنوات القليلة التالية ، كما أن هذه كانت أول مرة شعر فيها الإنجليز بقوة العرب . ولم تجد إنجلترا بدًّا من معالجة الحالة — بطريقتها الخاصة — فأرسلت لجنة للتحقيق رأسها لورد « بيل » — نائب الملك السابق فى الهند — فأخذت تحقق وتستجوب ، وكان العرب قد قاطعوها فى بداية الأمر ثم اتصلوا بها بعد ذلك ، وأخيراً أصدرت تقريرها فى يوليه ١٩٣٧ .

اعترف تقرير هذه « اللجنة » ببعض الحقائق : فقرر أن أسباب الثورة راجعة إلى رغبة العرب فى الحصول على استقلال بلادهم ، ومعارضتهم للوطن القومى اليهودى ، وبالتالى خوفهم من سيطرة اليهود . كما سجل أن العرب يأخذون على حكومة الانتداب تحيزها للصهيونية ، وأنها لم تحقق ما نصت عليه وثيقة انتدابها من العمل لإقامة الحكم الذاتى فى البلاد ، خشية إغضاب الصهيونيين إذ كانوا لا يزالون أقلية ، فبينما تهمل بريطانيا تنفيذ البنود التى تخدم مصالح فلسطين والعرب تُعنى بتنفيذ تلك التى تحقق مطالب اليهود : مثل تيسير الهجرة ، وشراء الأراضى من العرب ، وما إلى ذلك . وتضمن التقرير عدة توصيات ، بعضها جاء بعد فوات الوقت ، وأتى بعضها مناقضاً للبعض الآخر ، ولكن أهم ما جاء به وهو العلاج النهائى الذى قدمه لحل المشكلة أنه اقترح تجزئة أو « تقسيم » فلسطين إلى ثلاثة أقسام ؛ وكان هذا أول ظهور لفكرة التقسيم فى ثوب رسمى ، وهى فكرة وردت من إنجلترا ! فاقترح أن يكون القسم الساحلى مع ما يليه من سهول خصبة لليهود ، والقسم الداخلى الذى يكون مع شرق الأردن كتلة واحدة يكون للعرب ، وبينهما دولة الانتداب التى تفصل بينهما ، وتشمل رقعتها القدس وبيت لحم والناصرة ، وتشرف على كليهما بمقتضى معاهدتين تبرمهما مع كل منهما على حدة . ولما كانت هذه « التجزئة » لوطن واحد محدود المساحة معناها اقتطاع الجزء الأكبر من الوطن العربى فى فلسطين للإنجليز واليهود ، مع الاعتراف بشرعية وجود الأخيرين الذين ما هم غير مغتصبين ، واستمرار خضوع البلاد لنفوذ الاحتلال دون أن تنال استقلالها ، كان طبيعياً أن

يكون نصيبها الرفض ، وكانت على كل حال اقتراحاً غير عملى لم يرض به أى طرف .
ولم يجد العرب حينئذٍ أمامهم إلا أن يستأنفوا الجهاد ، فعادت الأمور كما كانت إلى الاضطراب ، وقابلت الحكومة البريطانية هذا السعى المشروع نحو الاستقلال ودفاع أهل فلسطين عن وطنهم بكل قسوة وعنف ! فخربت القرى ، وسجنت الأحرار ، وأقامت المحاكم العسكرية فى كل ناحية ، ثم حلت اللجنة العربية العليا واعتقلت أعضاءها فنفتهم إلى « سيشل » ، وإن كان « المفتى » استطاع أن يفر إلى بيروت ثم إلى العراق . هذا بينما تنعم « الوكالة اليهودية » فى أحضان حكومة الانتداب آمنة ، تنظم شئونها وتدبر خططها للمستقبل فى طمأنينة ورضا !

وهكذا وجدت « إنجلترا » نفسها وجها لوجه أمام أزمة عجزت أساليبها الدبلوماسية الخداعة أو العسكرية الصارمة عن حلها ، وظهر فشل « انتدابها » أمام العالم فشلا ذريعاً ، بعد مضى عشرين عاماً على وعد « بلفورها » الشهير ، فلم يكن لأعمالها من نتيجة إلا أن حوّلت أرض فلسطين المقدسة — أرض السلام — إلى ميدان حرب ، وخضبتها بأنهارٍ من دماء !

أرغمت تلك الأحداث وغيرها إنجلترا على أن تفكر فى موقفها وتدرك خطورة النتائج التى أوصلتها إليها أعمالها ، فكان لابد لها أن تتراجع ، ولو قليلا ، وتأخذ فى تعديل سياستها ، ولاسيما والسحب المنذرة بالشر ، الموعِدة بقرب هبوب حرب عالمية ثانية كانت تتجمع وتتكاثف فى أفق العلاقات الدولية ، وكانت قوة « الفاشستية » تبدو خطراً لا يمكن تجاهله على نفوذ بريطانيا فى حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ وحوالى ذلك الوقت ظهرت قوة جديدة كان على إنجلترا أن تحسب لها حسابها ، فكان لظهورها أثر كبير فى مؤازرة قضية العروبة فى فلسطين ، تلك هى قوة الشعور العام المشترك بين الشعوب العربية بالوحدة فى الأهداف والمصير ، والتجاوب لما يصيب أيًّا منها من خير أو شر ؛ فإنه فى ذلك التاريخ تمكنت تلك الشعوب من أن تختتم مرحلة فى حياتها ، كانت كل منها فى خلالها مشغولة بشئونها الداخلية وما يقتضيه واجب كسب معركتها ضد قوى العدوان والرجعية ، منذ أن داهمها الاستعمار فى نهاية الحرب العالمية الأولى وفوْر انهيار الدولة العثمانية ، فكانت تلك الفترة ما بين عامى

١٩١٨ — ١٩٣٦ الفرصة الثمينة التى التى اغتنمها الاستعمار والصهيونية لتنفيذ مؤامرتهما فى فلسطين . ولكن منذ سنة ١٩٣٦ بدأت مرحلة جديدة فى حياة شعوب الشرق العربى ؛ فإن سوريا ولبنان تمكنتا من عقد معاهدة مع فرنسا ١٩٣٦ اعترفت فيها الأخيرة لهما بالاستقلال والسيادة مع بعض القيود ، كما تمكنت مصر من عقد معاهدة مع إنجلترا فى نفس العام كانت على كل حال خطوة كبيرة نحو تحقيق أهدافها التامة فى الاستقلال والسيادة ، وبرزت شخصيتا هاتين الدولتين العربيتين على مسرح السياسة العالمية ؛ وكان العراق قد أخذ يتمخض عن ثورات عنيفة ضد الاستعمار تحت زعامة مليكه الفتىّ « غازى » ويتوثب حيوية وغيرة على قضية العروبة ، وكان قد أصبح لشرق الأردن صوت مسموع فى تقرير مصير السياسة الدولية فيما يختص بالشرق الأوسط ، كما أن الحجاز كان قد انتهى من تثبيت دعائم دولته التى بدأت منذ عام ١٩٢٦ حين انتهى عهد أسرة «الأشراف» من مكة ، وعقد صلحه مع اليمن عام ١٩٣٥ واعترفت مصر بحكومته فى عام ١٩٣٦ ، وأخذت الدولة السعودية الجديدة الغنية بثروتها البترولية الطائلة ، التى اكتُشفت حديثاً ، تظهر عاملا قوياً فى محيط السياسة العربية .



كل هذه الأحداث والتطورات — مع خوف إنجلترا على مصيرها فى أثناء الحرب العالمية التى كانت ستهب قريباً — أرغمت إنجلترا ، بعد أن يئست من أن تحل القضية بتقارير لجانها التى ألفتها (فإنها كانت قد حولت تقرير « بيل » إلى لجنة الانتدابات بعصبة الأمم ؛ وهذه بدورها طلبت موافاتها ببيانات عن طريقة تنفيذ المقترحات ، فاضطرت الحكومة الإنجليزية إلى تأليف لجنة أخرى برئاسة « وود هد » ، قدمت تقريراً آخر فى نوفمبر ١٩٣٨ اقترحت فيه مشروعات أخرى للتقسيم . ثم قررت إنجلترا أنها كلها مشروعات غير قابلة للتنفيذ ، وأعلنت إعراضها عما ورد بالتقارير — أرغمت تلك التطورات إنجلترا على أن تشرع فى خطة جديدة ، وأن تعترف بقوة الرأى العام العربى ، الذى أخذ يعلن استنكاره — بكل قوة — لسياسة بريطانيا الجائرة ، وجعل قضية فلسطين قضية للشعوب العربية جميعاً .

فإذ استمرت الاضطرابات عبر سنتى ١٩٣٧ — ١٩٣٨ قررت إنجلترا أن تدعو

إلى عقد « مؤتمر المائدة المستديرة » فى لندن فى أوائل عام ١٩٣٩ : الذى دعت إليه زعماء وممثلى الدول العربية جميعها ، وتظاهرت بأن غرضها السمى للتوفيق بين العرب واليهود ، فدعت إليه ممثلى اليهود أيضا ، تبحث الأمر مع كل فريق على حدة . عقد « المؤتمر » فى سان جيمس بلندن (يناير — مارس ١٩٣٩) ، وكان اجتماع مندوبى الدول العربية : مصر ، العراق ، سورية ، لبنان ، شرق الأردن ، الحجاز ، اليمن ، وفلسطين ، النموذج الأول لاجتماع « الجامعة العربية » التى كانت ستنشأ بعد بضع سنوات — وكان اجتماعا رائعاً — كما أنه كان فى دعوة إنجلترا لهم ومفاوضة حكومتها معهم الاعتراف شبه الرسمى بقوة العالم العربى .

وفى المقال الأخير سنبين تطور القضية منذ مؤتمر المائدة المستديرة وصدور « الكتاب الأبيض » ١٩٣٩ إلى نهاية الحرب الفلسطينية ١٩٤٩ . وفى خلال هذا الدور الأخير حدث تطور خطير : فإن أمريكا قد حلّت محل إنجلترا فى معاضدة الحركة الصهيونية ، وصار اليهود يعتمدون على أمريكا بدلا من إنجلترا ، فأصبحت أمريكا العامل الأول المؤثر فى سياسة الشرق الأوسط ، وأكبر خطر يتهدد أمن وحياة الشعوب العربية والإسلامية ، فهى تقف الآن موقف العدو الأول للعروبة والإسلام معاً .

حسن الخلق

نادى المأمون خادمه يوماً قائلاً : يا غلام ، فدخل عليه وهو يقول : أما ينبغى للغلام أن يأكل ويشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح : يا غلام يا غلام . فنكس الخليفة رأسه طويلاً ثم قال : إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خادمه ، وإن ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خادمه ؛ ولا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خادمنا .

حول السياسات الاقتصادية

الأستاذ عيسى عبده إبراهيم

أستاذ إدارة الأعمال بكلية التجارة بجامعة إبراهيم

(٤)

« انتهينا فيما تقدم إلى القول بأن الربا والفائدة من المترادفات ، وأن الربا يهدم بعض أركان الإنتاج ، وأن الاعتماد على قرض الاستغلال هو نوع من التبلد أو ضرب من القهر . وأن قرض الاستهلاك غريب عن الإسلام ، وأن القروض فى شتى صورها هى من وسائل الاستعمار الصليبى . . . وهذه حلقة رابعة من هذا الحديث » .

مدى خطورة البحث :

لا ترجع أهمية الموضوع الذى نعالجه إلى مجرد التدليل على ما غاب عنا من حكمة بالغة فى تحريم الربا ، بل ترجع إلى هذا القلق الذى نعيش فيه ، والضيق الشديد الذى نعانيه ويعانيه العالم معنا ، بشعوبه الغنية والفقيرة ، والمتقدمة والمتخلفة ، من تردد واضطراب بين المذاهب الاقتصادية المتعارضة والتيارات الفكرية التى يشتد تلاطمها فى وقتنا الحاضر ، إلى حد ينذر بالفتن الداخلية والعالمية .

ولقد دُفعنا هنا فى الشرق الإسلامى ، وبخاصة فى مصر ، إلى محاولة الملاءمة بين النصوص الصريحة المانعة للمعاملات الربوية ، وبين ما نتوهمه من ضرورة ملحة للخلاص من هذا الحرج . فنحن كأمة مسلمة نقف الآن فى مفترق الطرق ، فإما تخلّف عن ركب الحضارة الحديثة إذا نحن حافظنا على التراث القديم ، وإما إهدار لهذا التراث وتنكر له بوصفه قيدا ثقيلا ، لعلنا نلحق بالقافلة .

ولما كانت هذه الحضارة المادية الحديثة تقوم على الصيرفة ، أو تعتمد عليها لتيسير حركة الأخذ والعطاء فى التجارة الداخلية وفى المعاملات الدولية ، فقد تعين علينا أن نختار بين التسليم بالأوضاع الغربية لنكون عصريين ، أو أن نقاومها باستماتة حتى لا تكون فتنة تأتى على ما بين أيدينا من تراث نعتز به .

غير أن الواقع يخالف هذه الصورة القاتمة . . . فالمشكلة أقل من أن نضيق بها إلى هذا الحد . وكل ما فى الأمر أننا لم نتوفر على النظر فى بعض الآيات الكريمة بالبحث العلمى ، وجاوزنا القصد فى تقليد الغرب واللحاق بغباره والإيمان بنظرياته . ولم نحفل كثيراً بأن هذا الغرب يعيش بغير مثالية أو هدف كريم .

ومن المؤسف حقا أننا لانزال فى هذا الغى سادرين ، وأننا نحرص على الاستزادة من آثار الغرب على علاتها ، ونقبل نظرياته وقوانينه على أنها القول الفصل .

نقدّم بهذا التنبيه بين يدى حملة صريحة سافرة على بعض نظريات الغرب التى تؤمن بها جمهرة المثقفين بالثقافة الغربية ، وتعمل على إذاعتها فى الكتب والمحاضرات ، وفى الأوساط الرسمية . . . فقد وصلت بنا الحال إلى درجه العبودية لهذه النظريات . مع أنها تنطوى على الجهالة والضلال جميعاً . ونراها تكاثرت حتى غابت الأسس والأصول فى غمار من الفروع والتفصيلات . هذا خطر شائع فى كل بحث يعرض له الكاتب ، ولكنه فى السياسات الاقتصادية قد احتل مكانة ممتازة ؛ لأن بحوث الاقتصاد تتناول الثروة وإنتاجها وتوزيعها ، وهذه وثيقة الصلة بشئون المعيشة واضطراب الخلق فى غدوهم ورواحهم . وليس صواباً أن تكلف عامة الناس وأوساطهم بأن يقنعوا بالمعانى السامية وهم يرون غيرهم يسرفون . . . ولهذا ظهرت فى الغرب حركات اقتصادية من أواخر القرن الثامن عشر ، وهى لاتزال بسبيلها إلى التطور والانتشار فى شدة بالغة وفى تشعب وتعارض يملك على الكاتب والقارئ جميعاً مذاهب التفكير والتأمل ، إلى حد أن القضايا الكلية ، والنظريات الأساسية قد تغيب عنه . وكلما زاد من التأمل فى التفصيلات وتياراتها المتعارضة ، زاد بعدُه عن الأساس ، وتعذر عليه الحكم الصحيح على المشكلة واقتراح حل لها .

الربا دائما :

هذه الحلقات المتتابعة لا تعدو أن تكون كلمات مرسلة حول السياسات الاقتصادية . ومع ذلك لانزال نبدئ ونعيد حول الربا ، فهل هو قضية كلية أم هو فرع ثانوى من بحث أكثر شمولا ؟

ولقد سبق القول فى حلقات نشرتها لنا مجلة « المسلمون » بأن الربا أساس كل اضطراب فى المعاملات الاقتصادية ، فيما بين الأفراد ، وفيما بين الشعوب أيضا . وعندنا أنه من القضايا الكلية التى بنيت عليها المعاملات . وهذه الإشاعة الساخرة الغادرة للمعاملات الربوية كجزء من الفلسفة الاقتصادية الغربية ، لاتجىء عفوا ولا مصادفة ؛ وإنما هى جزء من خطة صليبية أساسها التضليل ، وهدفها قهر الشعوب الغنية واستنزاف مواردها .

ولكى نستبين هذا المعنى ، سنحيط بالموضوع من أطرافه أولاً ، ثم نقترب تدريجا من المحور الذى تدور عليه المعاملات لتحقيق أهداف الغرب فى بلادنا ، وسنبدأ ببعض المصطلحات المشهورة ، التى يكاد الحديث عنها يكون قولا معادا ، لنرى إلى أى حد نحن نساير الغرب فى جهالته ، ونردد آراءه مؤمنين بها ، مع أنها لاتستهدف إلا صرفنا عن النسق البديع والسنة العظيمة اللذين أرادهما لنا المولى سبحانه .



ومن الخير أن نناقش هنا بعض الآراء المسلم بها والشائعة فى أوساطنا العلمية والرسمية .

توزيع الثروة بين الشرق والغرب :

فلننظر إذن إلى هذه الأرض التى نعمرها ، ولنتأمل كيف أن الخالق عزّ وجل لم ينشئها بغير نظام يلائم بين مفردات عناصرها ويربط ما بين أطرافها وفقا لقوانين ثابتة لاتتحول ؛ ففى الأرض يابسة وماء ، وفيها أجواء تتفاوت بين التجمد عند القطبين والانصهار عند خط الاستواء . وقد أراد الحق تبارك وتعالى أن يبعث بالرسل فى أغنى البقاع ، وأن يدعو عباده إلى السير فى مناكبها والاستمتاع بما تحفل به من خيرات هى من صنع الله . . .

فلننظر إذن إلى المنطقة المعتدلة الشمالية ، وما تحتها من استواء ، ثم المنطقة المعتدلة الجنوبية ، نجد أن هذا الجزء من العالم برا وبحراً هو المعترك الخالد منذ تزاحم الناس على الطيبات . ففى هذه الرقعة الممتازة من الأرض ، بحار دافئة ، وأرض قوية

تسلطت عليها الشمس آلاف السنين ، أو فى عصور متعاقبة كقول علماء الجيولوجيا ، فأما البحار الدافئة فتجرى فيها الفُلك بالأرزاق على مدار السنة دون عقبة من صقيع أو جليد ، وأما القشرة الأرضية فقد أخذت من الشمس ، ولا تزال ، قوة على الإنبات فائقة الحد ، وغنيت بالحقول والغابات والأحراش ، وإذا اهتزت الأرض أو مرت بها عوامل التعرية ، فإن الغابات تطمر ، والأخشاب تنضج فى بطن الأرض على مر الدهور ، فيتواجد الفحم ، ثم تتقلص القشرة الأرضية مرة أخرى أو مرات ، فتعتصر الفحم وغيره من المواد المطمورة ، وهكذا يتوافر الزيت . كما قد يطول القدم ببعض عناصر الفحم ، فإذا بها تشف عن أحجار صافية نتخذها حلية وزينة ، كل هذا يجرى تحت القشرة الأرضية الدافئة وإن علتها رمال سافية تشعر بالفقر والوحشة .



فأين هبط الوحى ؟ ومن أى بقعة فى الأرض خرجت الرسل ؟

بحسبنا هنا أن ننظر إلى الرسالة المحمدية كيف بدأت وكيف انتشرت إلى بحر الصين شرقا ، وإلى المحيط الأطلسى وجبال البرانس وأرض الغال غربا ؟ لقد انتشر الإسلام إذن فى أعظم بقاع الأرض شأنا وأحفلها بأسباب القوة . لا ليكون الإسلام حربا على الجنس البشرى بقوة الحديد والنار ، بل ليكون سلاماً فى الأولى والآخرة ، وليدرأ عن أهله طغيان الجاهلية إذا هى تحركت من جديد . ثم إننا أعطينا مفاتيح البحار ، فكانت لنا البواغيز جميعا وبغير استثناء ، ونُبِّهنا فى صراحة وتكرار إلى الفلك التى تحمل الطيبات والأرزاق بأقل نفقة عرفها الإنسان . ولا نحسب أن العلم يأتى بجديد فى هذا الأمر .

هذه هى رقعة البلاد الإسلامية ، التى يقال الآن صراحة وفى لجاجة صفيقة بأنها بلاد فقيرة تحتاج إلى رؤوس الأموال الأجنبية ، وإلا بقيت متخلفة عن ركب الحضارة.

ولنضرب الأمثال بوطننا الأصغر ، وهو وادى النيل .

فى هذا الوادى شماله وجنوبه يجود القطن لأن هذا النبات لا ينضج إلا على قدر من الحرارة معلوم وموزع على موسم الزراعة ، ويقدرون ما يلزمه من ساعات الضوء والحرارة بنحو ٢٤٠٠ ساعة ، وهذه لا تتوافر إلا فى وادى النيل . وبالتالى فإن قطنه

ممتاز ، وسيظل كذلك ، لأن سنة الله فى أرضه باقية ، ولأن تدخل الإنسان بعقله وعمله لايزيد ولا ينقص من خلق الله ، وإنما يحسن أو يسئ الانتفاع بالموارد المتوافرة بين يديه . وفى هذا الوادى من الشجر والثمر ما يغنى أهله ، وما تتطلع إليه شعوب البلاد المحرومة ، كالبصل والثوم ، والحبوب ، والبلح والصمغ . . الخ . وفى هذا الوادى ، ذهب خالص وهو قوة شرائية لا ترفض فى المبادلات لأن وجوده نادر نسبيا ، وفيها المنجنيز والميكا ، وفيها الحديد والصلب وما يصلحهما من العوامل المساعدة فى الإنتاج ، وفيها الوقود الذى تسعى إليه الأمم الصناعية . . . فى وادى النيل البترول وفى سيناء كذلك ، بصرف النظر مؤقتا عن الأقطار الشقيقة المجاورة وهى ليبيا وتونس .



فما هو الرأى الذى ينبغى لنا أن نجلوه لأنفسنا ولأبنائنا ؟ هل نقول بأن الشرق الإسلامى فقير بائس يطلب العون من الغرب القريب والبعيد ؟ أم نقول بأن الأمة الإسلامية تعيش فى أغنى البقاع ؟ .

قد يُعترض على هذا القول بأن الفقر الذى نحن فيه قد حل بساحتنا عن جدارة واستحقاق ، لأننا نطأ الثروة ولا نعلم شيئا عن خصائصها ولا وسائل استنباطها والانتفاع بها . وهذا صحيح ولكنه خارج عن نطاق البحث ؛ إذ مناط القول هنا هو المراجحة بين أمرين : توافر الثروة فى أراضى المسلمين أو نضوبها ، سواء أكان هذا النضوب حادثا أم قديما . أما تقصير الأمة الإسلامية عن عبادة الله فى أرضه بالتعرف على آثار خلقه ، والتمكن منها وتسخيرها فى رفع كلمة الله ونشر المثالية الواحدة التى أشرقت بها السموات والأرض ، وهى التوحيد . . . فمسألة نسلم بها . ولكن التقصير فى التعرّف على ما عندنا والتمكن منه ، ليس معناه أننا فقراء ، ولا معناه أن أرضنا هذه لامالك لها فهى نهب مباح لكل قرصان أو قاطع طريق .

هذه هى الدعوى الأولى التى نثيرها فى مواجهة الرجل الأبيض ، وأنصاره من من المتأثرين بثقافته ، وتتلخص فى أن الثروة هى مجموعة الطيبات التى تتوافر فيها خصائص معينة ، من شأنها إشباع حاجات الناس . وأن هذه الطيبات هى من خلق الله لا من صنع البشر ، وأنها متوافرة فى الشرق الإسلامى وفرة هائلة تسمح للأمة

الإسلامية بالعيش الكريم ، كما تسمح لها بحشد ما ينبغى من قوة ومن رباط الخيل ، حتى تدفع القهر الذى عانته ، حين انصرفت عن القيم المعنوية والقيم المادية جميعا ، وظنت أن سنة الله فى الأرض لا بد أن تتحول بحيث يرزق القاعد عن الكسب ، ويعز المستضعف المتخاذل ، وهيهات .

فالقول إذن بأن مصر لا ينصلح لها حال إلا إذا اقترضت عاجلا من الغرب خمسمائة مليون جنيه ، على أن تتمها إلى ألف مليون فى بضع سنوات ، هو قول تافه صغير ؛ لأن الغرب ما كان ليتجشم مشقات السفر ومخاطره ويرضى بالبعد عن الأهل والوطن ، لولا أنه يعلم بأنه ها هنا فى الشرق وتحت أقدام المسلمين المعادن والوقود . ومن بعض الأقطار الإسلامية كأندونسيا تستخرج نسبة عالية من الخامات النادرة ، مثال ذلك ثلث المطاط . ومن هذا القطر الإسلامى وبعض الجزر القريبة منه يستخرج معظم النحاس والقصدير . . . وهكذا .



وبالتالى تكون لهفة الغرب على الإقامة هنا بيننا راجعة إلى حاجته ، لا إلى تفضله بالقرض والإعانة والتوجيه .

إذن نحن لا ننصف أنفسنا إذا رددنا فيما بيننا ، أو علمنا أبناءنا أن مصر أو نظائرها من الأقطار الإفريقية والأسيوية الواقعة فى المجالات المعتدلة ، تفتقر إلى معونة الغرب وقروضه . هذا ضلال مقصود به توهين العزيمة وإذلال النفس .

ومما يلفت النظر أن الغرب لا يذهب فى الضلال إلى المدى الذى يذهب إليه المستضعفون من المقلدين .

يقول الغرب بأن بلاد الشرق الأوسط وبعض المناطق التى أشرنا إليها فيما تقدم متخلفة اقتصاديا ، أو يقول بأن استغلال مواردها مقصر عن الدرجة المناسبة underdeveloped ولم يزعم الغرب بأن بلادنا قليلة الثراء ، وأنه يتصدق علينا بالقروض .

ومع ذلك يقول أصحاب الرأى والفكر عندنا بأنه مالم نفتح أبوابنا لرؤوس الأموال الأجنبية والقروض المستوردة من الخارج فإن الفقر مقيم عندنا . ولما كانت الأموال الأجنبية التى يدعونها لغزو هذه البلاد ، تنتظر منا كرم الوفادة وبعض

الرعاية . . . ولما كانت الامتيازات البغيضة قد بدأت فى صور متواضعة من كرم الضيافة وتفضل المضيف ، فإن هذا الذى يقولون به من حاجة بلادنا إلى القروض ، حتى وإن كان صحيحا ، ينطوى على خطر بالغ ، فكيف والحق غير ما يقولون ؟ فما بنا من حاجة إلى رؤوس أموال أجنبية ، ولا قروض مستوردة . . .

ولكن ما هو رأس المال وقد جاء مقتحما هذا الحديث الذى يدور حول الثروة وما تتألفه من طيبات تشبع الحاجات ؟ .

(الحديث موصول)



العفـــــو

وقعت دماء بين حيّين من قريش فأقبل أبو سفيان فما بقى أحدٌ واضعاً رأسه إلا رفعه .

فقال : يامعشر قريش ! هل لكم فى الحق أو فيما هو أفضل من الحق ؟

قالوا : وأى شىء أفضل من الحق ؟

قال : العفو .

فتبادر القوم واصطلحوا .

من تاريخ رجالنا :

أيها المحلفون !

لا . . الله لا الملك !

(٦)

رئيس المحكمة : يجب أن تكف وليس لك أن تستمر .

محمــد على : إننى إنما أفعل ما يسمح لى به القانون . إن القانون يقول بأن ليس لى أن أدعو الجنود للتخلى عن واجبهم ، وأنا أقول ليس من واجب الجندى المسلم أن يقتل أخاه المسلم ؛ ولى هنا أن أناقش هذه القضية إلى الأبد ، فما دمت بسبيل إيضاح وجهة نظرى فإن لى هذا الحق . امنعونى هذا الحق وأنهوا هذه الهزلة . ما جدوى هذه المسرحية ؟ ! خذوا فريقاً من الرماة ليعدمونا فى الحال ؛ وإذا شئتم إتمام فصول هذه الرواية الهزلية ، حاكمونا بعد موتنا كما فعل اللورد نلسن من قبل ؟

إننى أقول : إن شيئاً لا يجبر إنساناً على مخالفة تعاليم دينه حتى الواجبات العسكرية .

رئيس المحكمة : ليس ذلك فى موضوعنا .

محمــد على : إننى أوضح تعاليم الإسلام ، وقد قدمت ذلك فى مذكرتى للمحكمة الابتدائية ؛ إن ذلك فى صميم الموضوع .

رئيس المحكمة : اجلس مكانك .

محمــد على : إنى لم أناقش بعد المادة ٥٠٥ ، ولم أتعرض بكلمة للاتهام بموجب المادة ١١٧ ، فهل يُحكم على دون أن أقول فيهما شيئاً ؟ .

رئيس المحكمة : لن أسمح لك بحق الكلام .

محمــد على : أرنى جملة واحدة فى كتب القانون التى لديك تخولك منعى ذلك الحق ! لقد حرمتنى حقاً إذ لم تسمح لى بتقديم مذكرة للمحلفين ضد الادعاء ، والآن تريد أن تكفنى عن مخاطبة المحلفين . إن لك أن تعترض على قسم معين من مرافعتى

فتقول : دع الكلام فى هذا ، ولكن أنّى لك أن تمنعنى ألبتة بقولك : لن أسمح لك بحق الكلام ؟ !

رئيس المحكمة : (يردد قوله) اجلس لن أستمع إليك .

محمد على : أتظن أنك مخوّل قانوناً حتى تمنعنى ذلك الحق ؟ إن القانون يقول : إنها لا تبلغ لتكون جريمة ما دامت فى حدود الاستثناء الذى ذكر . . .

رئيس المحكمة : و . . .

محمد على : لا بأس عليك بشأن « و . . . » إننى إنما أناقش صحة البيان ولم أناقش بعد أمر « النية والقصد » فيه .

رئيس المحكمة : لن أستمع إليك .

محمد على : إننى على أى حال أخاطب المحلفين ، وليس لك أن تمنع المحلفين حقهم ، فإن عليهم أن يعطوا رأيهم فيما إذا كنت مذنباً أو غير مذنب ، وذلك بمقتضى القانون الذى يقول (يقرأ) وأنا لا أستطيع أن أحل كلامك محل القانون . . كلا ! إننى لا أعتبر كلام أحد أمام النص الواضح فى القانون .

رئيس المحكمة : ناقش قضيتك .

محمد على : إنها ليست قضيتكم هى التى أناقش (ضحك) حسناً أيها السادة المحلفون . . .

رئيس المحكمة : لن أستمع إليك .

محمد على : لك ألا تستمع إلىّ كما فعلت من قبل أكثر من مرة . لقد نمت أثناء جزء طويل من فترة تلاوتى للمذكرة ، ولك أن تنام الآن . أما المحلفون فلا بد لى من مخاطبتهم .

رئيس المحكمة : (غاضباً) ألا تجلس ؟ !

محمد على : فإن لم أفعل ؟ . . .

رئيس المحكمة : أضعك تحت الحراسة !

محمد على : دونك وما تريد ! . . .

(مدير البوليس يدعى ليجلس المتهم ولكنه يتراجع دون أن يمسه ويتركه واقفاً . المحكمة تأمر المحضر لينادى على المتهم رقم ٢ مولانا حسين أحمد صاحب المحضر ينادى ولكن مولانا حسين أحمد لا ينبس ببنت شفة أو يتحرك قيد شمرة)

محمد على : (غير مكترث بتصرف المحكمة) الآن أيها السادة المحلفون ...

رئيس المحكمة : لا تقاطع المحكمة .

محمد على : إننى لا أقاطع المحكمة ، بل الحق أنكم أنتم الذين تقاطعوننى . لا بد لى من مناقشة ذلك الاستثناء والبحث فيه . أبطلوا التهم الموجهة بموجب المادة ٥٠٥ والمادة ١١٧ إن شئتم حتى أكف عن المرافعة ، فإن لكم أن تعدّلوا فى الاتهام حتى النهاية .



رئيس المحكمة : لا أستطيع أن أسمح لك بشرح القانون الدينى هنا .

محمد على : إننى إنما أشرح القانون الأرضى كما تدعونه لا القانون الدينى . إننى أبين للمحلفين أن البيان الذى أعلناه مشتملا على القرار حقٌ لأنه مستند إلى القرآن والحديث .

رئيس المحكمة : لا لزوم لذلك .

محمد على : إن الذى يقدر الضرورة أنا لا أنت . إنك لم تكف المدعى العام عن مرافعته إذ كان يثبت ما يراه ضرورياً ، أفلا تدعنى أثبت ما أراه أنا ضرورياً ؟ إننى لا أحب أن أخلق المنافرات ، فلست هنا لهذه الغاية ، ولا أود أن أكون عنيداً صفيق الوجه ؛ ولكنى لا أرضى باهتضام حقوقى .

رئيس المحكمة : ولكنك تستغرق وقتاً كثيرا طويلاً جداً .

محمد على : لقد وعدتنى أمس بنصف ساعة تسمح لى فيها بالبحث اليوم فى تفوق الشريعة الدينية قبل مناقشة النقاط القانونية ووقائع القضية . إننى أقول إن الدين يُستثنى فى كل الأحوال . والآن علىّ أن أثبت فى مناقشة القانون الأرضى — المادة ٥٠٥ — أنه ممنوع شرعاً الخدمة فى الجيش وأن ذلك حقيقة صادقة ينطبق عليها الاستثناء فى المادة ٥٠٥ .

رئيس المحكمة : افترض اعتبار صدق ذلك .

محمد على : ليعتبر صدقه المحلفون ، وليقروا بذلك كتابةً . قولوا إن هذا الأمر قد ثبت لنا حتى أدع هذا الموضوع دون مناقشة ، واسألوا المدعى العام إن كان يرى أنى محق بذلك .

المدعى العام : نحن نقرر أن الآيات التى وردت فى المذكرة التى تليت على المحكمة الابتدائية من القرآن .

محمد على : إنى أريد أن تقرروا زيادة على ذلك أن هذا البيان الذى اتهمت بسببه بموجب المادة ٥٠٥ موافق للقرآن والسنة .

المدعى العام : لا نستطيع إقرار ذلك .

محمد على : إذن فعلىّ إثباته . لنفرض أن مسيحياً اتهم فى إصدار بيان عن عقيدته فى الآب الأب والرب الابن والرب الروح القدس . إنه حينئذ يحتج بإثبات صحة بيانه من العقيدة المسيحية ويقول : إننى أثبت ذلك من التوراة والإنجيل وأبينه من رسائل الحواريين وكتاب الصلاة . أترون أن ليس له الحق أن يفعل ذلك ؟ ! أأكون — أيها المسلم — قاضياً عادلاً إن منعته ذلك ؟ أتظنون أننى أعدل إذ أمنعه أن يثبت أن بيانه صحيح عن التثليث فى العقيدة المسيحية ؟ !

رئيس المحكمة : (يومىء برأسه) اجلس مكانك .

محمد على : لا أجلس أو تعتبروا بيانى صحيحاً ! إننى لا أود أن أكون عنيداً أو لجوجاً بغير سبب ، ولكنى على أى حال أريد الوقوف على حق غير منقوص .

رئيس المحكمة : إنك تضيع وقت المحكمة .

محمد على : إننى لا أضيع وقت أحد ، إنما أريد إقناع المحلفين أن البيان صحيح .

رئيس المحكمة : ذلك لا يهم .

محمد على : ذلك مهم جداً فى نظرى . إنه فى غاية الأهمية عندى أن يثبت

للسادة المحلفين أن البيان متفق والقرآن والحديث وأنه ليس من ابتداعى . . . وما القضية بعد كل هذا ؟ ! إنى لا أطلب الحماية لجريمة قتل اقترفتها ، ولا لتحريق بيت تعمدته ، ولا لنهب أقدمت عليه . إن القتل تنتفى عنه صفة الجريمة حين يأمر به القائد ، والنهب يصبح سائغا عندما يدعو إليه القائد . وهنا فى هذه القضية ، ليس القتل جريمة ما أمر به القرآن ؛ وعلى ذلك فمندما أعزو شيئاً إلى القرآن ، فإن لك أن تقول : أرنى ذلك .

رئيس المحكمة : افرض أننا نقبل ما تقول جدلاً .

محمد على : أريد أن تقبلوا قولى لكل الاعتبارات . قد أدع المناقشة بالمرة فى أمر القصد والنية فى هذه المادة إذ أننى لا أتكلم دفاعاً عن نفسى أيها السادة ، ولكن لابد من أن أثبت أن هذا البيان صحيح . لقد واجهت نفس الصعوبة عند صديقى مستر مونتاجو (Montague) إذ قال : إننى ياسيد محمد على لا أدخل فى مناقشة بشأن عقيدتك . ولكنى دعوته إلى ذلك ، ولقد دمعت عيناى عندما قلت له إنه ليس مما يسرنى مخاصمة الحكومة ، وقد احترم تلك الدموع فشرحت له الشريعة الإسلامية فى الخلافة وكان عليه أن يصغى . ولقد شرحت شريعة دينى لمستر لويد جورج أيضاً ، وكذلك لبعض أعضاء البرلمان الآخرين ، فلم يقولوا لا دخل لنا فيما ينص عليه القرآن .

إننى أريد أن أثبت أن هذا بيان صحيح وليس لكم أن تمنعونى هذا الحق فى الإثبات ، فهل تسمحون ؟ ؟

رئيس المحكمة : فقط إذا شئت أن تفعل ذلك بصورة مختصرة جداً

(القاعة تضج بالضحك)

محمد على : ولم لم تقولوا ذلك من قبل ؟! طبعاً سأفعل ذلك بصورة مختصرة ، بل فى غاية الاختصار ! !

(يتبع)

دستور الضرائب
بين الفكر الإسلامي والنظريات الغربية

للأستاذ الدكتور محمد فؤاد إبراهيم

المدرس بكلية التجارة بجامعة القاهرة

يمثل دستور الضرائب مركزاً هاماً فى مؤلفات المالية العامة ، لما له من شأن عظيم ومكانة خطيرة ؛ فهو الدستور الذى ينبغى أن تسير الحكومات على هديه عند وضع أنظمتها الضريبية وتنظيم طرق الجباية والتحصيل ، بل هو صمام الأمان الذى يدفع عن جمهور الممولين تعسف عمال الجباية ، ويشفع لهم قِبل أداة التشريع إذا ما جانبت القواعد العامة .

فلا غرو والحال هذه أن يتساءل المرء عن أحكام هذا الدستور : وهل هى نصوص جمعها تقنين واحد أسوة بدساتير الدول ، أم أنها مجرد قواعد متناثرة لم يجمع شملها بعد ؟

ليس دستور الضرائب فى الواقع إلا مبادئ وضعها الكتاب ، وتناولها الشراح بالبحث والتفصيل ، لا سيما وقد أصبح بعضها مثار جدل طويل فى المجالس التشريعية الغربية ؛ حتى لقد أدت مناقشتها فى بعض الأحيان إلى قيام الثورات ، وإلى تعديل أسس الحياة البرلمانية كما حدث مثلا فى إنجلترا وفرنسا . بيد أنه على الرغم من أهمية هذه المبادئ فإنها ظلت حتى وقتنا الحاضر أفكاراً مجردة ، يتناقلها الكتاب فى مؤلفاتهم ، وتشير إلى بعضها الحكومات فى مشروعاتها الضريبية ، دون أن يعنى أولو الأمر بجمع هذه الأحكام وتضمينها صلب دستور الدولة ، أو فى الأقل المبادرة إلى إصدار تشريع خاص بها يكون مرجعا للأداة التشريعية فى شئون الضرائب . ولعل قاعدة لا ضريبة إلا بنص ، ولا إلغاء ضريبة إلا بتشريع — وهى القاعدة التى وردت فى الدساتير المختلفة — كافية لتبيان أهمية تضمين الدستور مثل هذه القواعد ، وعدم الاكتفاء بقاعدة يتيمة من القواعد التى تنظم حقوق الخزانة ، كما تضمن حقوق الممولين فى مادة الضريبة .

فدستور الضرائب لم يخرج عن نطاق النظريات التى قالت بها طائفة من شراح الغرب أمثال آدم سميث وفاجنر ومونتسكيو وباستابل وغيرهم . ومن ثمّ فإن هذا الموضوع ما زال فى حاجة إلى كثير من البحث الذى قد يجمع بين أشتات النظريات المتضاربة التى جاء بها كتّاب الغرب ، كما أنه قد يضيف ما سوف يتكشف عنه فرض الضرائب فى العصور الحديثة من أفكار جديدة . وإن كنا ندعو فى هذا المقال إلى استئناف البحث فى أحكام دستور الضرائب ، وصبغه بصبغة تساير مقتضيات الزمان والمكان ، فإننا مع ذلك سوف نتجة اتجاها آخر لعلنا نسهم — ولو بقسط يسير — فى إزاحة الستر عن كثير من الحقائق والنظريات المالية التى خلفها لنا الإسلام تراثاً مجيدا ، وإن كنا حتى وقتنا هذا قد اتسمنا بالقصور فى الكشف عن مكنوناته والاستفادة من غزير مادته .

لعل من الأمور التى قد يعجز المنطق السليم عن تفسيرها ما يلاحظ من انصراف الغرب إلى التراث الإسلامى يبحث فى جوانبه عن المعرفة الصادقة ، حتى إذا ما عثر علماؤه على ما ينشدونه ، سارعوا إلى الأخذ به ، فى حين يغض الشرق الطرف عن كنوزه ، فلا غيرة تدفعه إلى إخفائه عن غيره ، ولا همة تحفزه على الارتواء من هذا المنهل العذب والاستزادة من تعاليم الفكر الإسلامى . فلا عجب إذن أن نشير فى مصر إلى نظريات فاجنر وآدم سميث إذا ما تحدثنا عن دستور الضرائب ، ولا نشير ألبتة إلى آراء العرب وأحكام الإسلام ؛ كأنما العرب قوم لا نمت لهم بصلة ، والإسلام دين نتبعه ونتناسى أنه ليس دينا فحسب ؛ بل هو دين ودولة . ولعمرى إن الإسلام زاخر بالنظريات العلمية وغيرها ، وإنك لتجد فى مؤلفات المسلمين كثيراً من القواعد العامة التى تنظم فرض الضرائب وتحصيلها .

وسنعرض هنا لبعض هذه القواعد ونقارنها بنظريات الغرب على نحو ما هو متبع فى وقتنا الحاضر ، هادفين من وراء ذلك إلى إظهار روعة الفكر الإسلامى فى الموضوعات المالية عامة ، ومسائل الضرائب خاصة . ومن ثم نتحدث عن قاعدة العدالة بادئ ذى بدء ، ثم ننتقل منها إلى قواعد الملاءمة والمرونة واليقين ، حتى إذا أوفيناها حقها من البحث ، استطعنا فى النهاية أن نرسم صورة واضحة المعالم لما عليه دستور الضرائب فى الإسلام .

١ — قاعدة العدالة :

تختلف الدولة عن الهيئات الخاصة والأفراد من حيث أنها تقوم بتقدير مصروفاتها ، ثم تعمد بعد ذلك إلى البحث عن مصادر الإيراد التي تكفل سد الحاجات العامة . ولا ريب أن الضرائب من الموارد الأساسية التي تستعين بها الدولة على تغذية الخزانة العامة . والدولة إذا ما سعت إلى فرض الضرائب نراها تتبع بعض القواعد التي تتفق وظروف الممولين ؛ فقد يلجأ الشخص المعنوى العام إلى الضرائب الشخصية أو يؤثر عليها الضرائب العينية ، كما أنه يحصلها عادة بالنقد وإن كان هذا لا ينفي جبايتها عينا في بعض الحالات .

ومهما يكن من أمر ، فإن الدول الغربية قد سايرت تطور الحضارة ، فانتقل نظامها الغربي من نظام ضريبة المظاهر الخارجية إلى الضريبة العينية ، وساير ركب الأفكار الحديثة فأخذ أخيراً بنظام الضريبة الشخصية التي يعدها الشراح أكثر الضرائب عدالة وأقربها إلى المساواة . والضريبة الشخصية عند الغرب — وفي نظامنا الضريبي المصرى — تتميز عن غيرها في أنها تراعى الأعباء العائلية وتعفى حد الكفاف وتفرض على أساس سعر تصاعدى . ولا يخفى أن هذه المميزات التي تقابلها في نطاق ضرائب الدخل تؤدى إلى فرض الضريبة على أساس مقدرة كل فرد على الأداء . وبذلك تتمكن الدولة من توزيع عبء الضريبة توزيعاً عادلا ، فيدفع الغنى بقدر ثرائه ، ويعفى الفقير رحمة به .



فعدالة الضريبة يتفهمها الغرب على أنها المساواة في التضحية ، وتقدمها النظريات الغربية في صورة التصاعد الذى يقترن بمراعاة حالة الممول الشخصية .

ولقد يبدو للبعض أن هذه القواعد التي أتى بها الغرب مزيدة في نوعها ، وأن الأخذ بها إنما جاء بعد أن تداولتها أبحاث الشراح وأدخلت عليها من التعديلات ما يساير ظروف الحضارة التي نعيش بين جوانبها في وقتنا الحاضر . بيد أن هذا الظن بعيد عن الواقع ، فلقد عرف العرب هذه القواعد منذ أيام الإسلام الأولى ، وعرض لها خلفاء المسلمين عرضا صريحا فيما كانوا يرسلونه من الكتب إلى ولاتهم في بقاع

الدولة الإسلامية . ولئن تكشفت هذه الكتب من حقيقة ، فإنما تكشف عن الجانب الشخصى فى ضرائب الإسلام .

ولما كان القضاء بشخصية الضرائب الإسلامية لا يكفى دون إقامة الدليل على ذلك ، فإن الأمر يقتضى أن نعرض فى هذا المقام لبعض فقرات هذه الكتب التى كان يوجهها الخلفاء إلى ولاة المسلمين . ولا مراء أن هذه الفقرات تسهم بقسط وافر فى إقامة صرح دستور الضرائب فى الإسلام .

كتب أبو إسحاق الصباح عن الخليفة « الطائع لله »[1] إلى فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه فى جمادى الأولى من سنة ست وستين وثلثمائة : (... وأمره أن يتخير عماله على الأعشار والخراج والضياع والجهبذة والصدقات والجوالى من أهل الظلف والنزاهة والضبط والصيانة والجزالة والشهامة ، وأن يستظهر مع ذلك عليهم بوصية يوعيها أسماعهم وعهود يعلوها أعناقهم بأن لا يضيّعوا حقا ولا يأكلوا سحتا ولا يستعملوا ظلما ولا يفارقوا غشما . . . وإلى جباة « جماجم » أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية فى المحرم من كل سنة (بحسب) منازلهم فى الأحوال وذات أيديهم فى الأموال ، وعلى الطبقات المطبقة فيها ، والحدود المعهودة لها ، وأن لا يأخذوها من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجل ، ولا من ذى سن عالية ، ولا ذى علة بادية ، ولا فقير معدم ، ولا مترهب متبتل ، وأن يراعى جماعة هؤلاء العمال مراعاة يُسِرّها ويظهرها ، ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها : لئلا يزولوا عن الحق الواجب أو يعدلوا عن السنن اللاحب ، فقد قال تعالى : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »[2]) .

ولم يخرج عن هذا المعنى ما كتب بأمر الله عهد أمير المسلمين يوسف من تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، بعد العشرين والأربعمائة حين قال : (وإلى جباة جماجم أهل الذمة يأخذ الجزية منهم فى كل سنة على قدر ذات أيديهم فى الضيق والسعة ، وبحسب العادة المألوفة المتبعة ، ممتنعين عن مطالبة النسوان ، ومن لم يبلغ الحلم من الرجال ، ومن علت سنة عن الاكتساب وتبتل من الرهبان ، ومن غدا فقرة واضح الدليل

(١) من خلفاء بنى العباس .

(٢) كتاب صبح الأعشى للقلقشندى — الجزء العاشر ص ١٥ — ٣١ .

والبرهان ، وفاء بالعهد المسئول ، وتلقيا لأمر الله تعالى بالقبول حيث يقول : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا [1] ») .

إن هذه الفقرات من كتب الخلفاء فى عصور الإسلام المتباينة لخير برهان على ماوصل إليه المسلمون من شأن رفيع وحكمة بالغة فى وضع أسس العدالة الضريبية ، وما يقطع ببراعتهم فى انتهاج السياسة المالية العادلة . ولعلها كافية الدلالة على أن الإسلام توسع فى عناصر الشخصية فسبق ماتوصلت إليه النظريات الغربية بأشواط ، وأخذت به التشريعات المقارنة الحديثة . فنظام ضرائب الدخل فى وقتنا الحاضر يقوم على أساس تخفيف عبء الضريبة عن رب الأسرة الذى يعول أولاده ، ومن ثم حددت القوانين الضريبية معياراً خاصا لايتجاوز الإعفاء حدوده ، بل لقد اقتصر فى معظم التشريعات على الأولاد دون غيرهم من الأفراد الذين قد يعولهم رب الأسرة . أما عن الإسلام فنرى عمال الجباية فى عصوره يمتنعون عن تحصيل الجزية من النساء وممن لم يبلغ الحلم من الرجال ، ومن الفقير المعدم والمترهب المتبتل . وفى هذا برهان ساطع على أن المبادئ الإسلامية لم تُعن بالمقدرة على الدفع فحسب ، بل جاوزت هذا المعيار إلى النواحى الإنسانية .

ولقد عرف الإسلام هذا الكفاف وجعل لكل من الزكاة والجوالى والخراج سعراً خاصاً يحصل على أساسه . ومصداق ذلك ما كتب به النبى صلى الله عليه وسلم إلى عمرو بن حزم حين وجهه إلى اليمن فأمره : « بأن يأخذ من المغانم خمس الله ، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من العقار عشر ماسقت العين وسقت السماء ، وعلى ماسقى الغرب نصف العشر . وفى كل عشر من الإبل شاتان ، وفى كل عشرين أربع شياه . وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جَذَعٌ أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاةٌ ، فإنها فريضة الله تعالى التى افترض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له . وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصا من نفسه ودان بدين الإسلام ، فإنه من المؤمنين : له مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته ، فإنه لا يُرَدُّ عنها وعلى كل حالم :

(١) من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى ، الجزء العاشر ، ص ٤١ .

ذ كر أو أنثى ، حر أو عبد ، دينار وافٍ أو عِوَضه ثياباً ، فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً (١) .

ولقد جرى الإسلام على ألا تؤخذ زكاة على ماهو أقل من خمس إبل ، كما لا يؤخذ على ما هو أقل من ثلاثين بقرة من البقر السائمة (٢) .

وقال ابن مماتى فى « قوانين الدواوين » إن الجوالى وهى مايؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة ، كانت فى زمانه على ثلاث طبقات : عليا هى أربعة دنانير وسدس عن كل رأس ، ووسطى وهى ديناران وقيراطان ، وسفلى وهى دينار واحد وثلث وربع دينار وحبتان من دينار .

وأورد ابن مماتى فى قوانين الدواوين أيضاً أنه فى زمانه كان الوجه القبلى فى مصر أكثر خراجه غلال من قمح وشعير وحمص وفول وعدس وبسلة ، ويؤخذ عن خراج كل فدان من الأصناف المذكورة مابين إردبين إلى ثلاثة بكيل تلك الناحية ، وربما زاد أو نقص عن ذلك ، وفى الغالب يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان أو ثلاثة ونحو ذلك ، بحسب قطائع البلاد وضرائبها فى الزيادة والنقص فى الأرادب والدراهم ، وربما كان الخراج فى بعض هذه البلاد دراهم . وما بار من أرض كل بلد يباع ما نبت فيه من المرعى مناجزة ، وربما أخذ فيه المداد على حسب عرف البلاد . والوجه البحرى غالب خراج بلاده دراهم (٣) .

« يتبع »

---

(١) من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى ، الجزء العاشر ص ١٠ ، ١١ .

(٢) سياسة الإسلام فى الدولة لأبى بكر العروسى التونسى ، ص ٢٢ — ٢٦ .

(٣) من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى ، الجزء الثالث ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤

القائد الفاتح الأحنف بن قيس

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب

(٢)*

الأحنف يحطم المجوسية بخراسان :

خرج الأحنف إلى خراسان ، فأخذ على مهرجان قذق ، ودخل خراسان من الطَّبَسَين ، فافتتح (هراة) عنوة ، واستخلف عليها سحاراً العبدى ، وتقدم إلى (مرو الشاهجان) ليطفىء نار المجوسية ويلقى يزدجرد فى معقله . وعند اتجاهه إلى مرو أرسل مطرّف بن عبد الله بن الشخير بجيش إلى نيسابور ، والحارس بن حسان بجيش إلى سرخس ، بينما كانت جيوش الكوفة تحاصر (جى) . ولما نزل الأحنف حول (مرو الشاهجان) انسحب منها يزدجرد إلى (مرو الروذ) وكتب من هناك إلى خاقان ملك الترك وغوزك ملك الصغد يستمدهما ، وإلى ملك الصين يستعينه . فلما علم الأحنف بانسحاب يزدجرد إلى مرو الروذ ، جعل حصار مرو الشاهجان إلى حارثة ابن النعمان الباهلى وهو من أخواله ، وضم إلى من اختارهم من جيشه أربعة ألوية من جيوش الكوفة ، وخرج بهم نحو مرو الروذ ليلقى يزدجر ، فلما دنا منها هرب هذا الجبان الدساس قاصدا (بلخ) فنزل الأحنف على مرو الروذ أياما لينظم حصارها وأرسل وراء يزدجرد إلى بلخ الألوية الأربعة من جيش الكوفة ، ثم لحق هو أيضاً بهم بعد تنظيم حصار مرو الروذ ليدركهم فى بلخ ، فوجدهم سبقوه إلى لقاء يزدجرد وهزم الله قواته ، وهرب يزدجرد بمن معه من الفرس إلى النهر — آخر حدود خراسان — فكان فتح بلخ من فتوح أهل الكوفة ، أما بقية بلاد خراسان فكلها من فتوح الأحنف بجيوش البصرة وأكثرهم من تميم ، ولا سيما رجال سعد بن زيد مناة رهط الأحنف .

وكتب الأحنف بفتح خراسان إلى عمر ، فعاد عمر إلى الندم على ما فعل ، وقال :

(*) نشر القسم الاول من هذا المقال القيم فى العدد التاسع من السنة الثانية من « المسلمون » .

« لوددت أنى لم أكن بعثت إليها جنداً ، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار » (الطبرى ٤ : ٢٦٤) وكتب فى جوابه إلى الأحنف : « أما بعد فلا تجوزنَّ النهر ، واقتصر على مادونه . وقد عرفتم بأى شىء دخلتم خراسان (يريد التقوى والإخلاص لله) فداوموا على الذى دخلتم به خراسان يدم لكم النصر ، وإياكم أن تتغيروا فتنفضّوا » .

ترى هل كان عمر يقول ذلك لأن الله أراه مثل الرؤيا التى رآها يزدجرد وهو يجوز المخاضة إلى مكان طهران ؟ أم أنه يطيل التفكير فى الأحاديث النبوية عن المشرق ؟ وعلى كل حال فإنه كان متشائماً من هذه الفتوح فى كل أطوارها .

أما مكانة الأحنف فكانت هى مكانته ، وقد قال عمر لما أتم الله على يد الأحنف هذا الفتح الأعظم « إنه الأحنف ، وهو سيد أهل الشرق المسمى بغير اسمه » .

اتحاد الترك والفرس على قمع الإسلام :

واستجاب ملكا الترك والصغد لاستمداد يزدجرد ، فأعدا له الجيوش من الترك والتتار ، فلما انهزم إلى أرضهم فيما وراء النهر كانت الأمداد قادمة عليه ، فانتعش بذلك وأعاد تنظيم رجاله ، وارتد إلى أرض خراسان بقوة همجية جمعت إلى ظلمات الكفر الشراسة وروح الفتك والطغيان . وكان الترك من أيام الأكاسرة ممنوعين من دخول أرض فارس (ولا بن مسكويه فى كتابه « تجارب الأمم » بيان مستفيض عن ذلك وعن أسبابه) فلما أبيح للترك دخول أرض فارس لقتال العرب دخلوها بشراسة وهمجية فظيعة . وكان عددهم أضعاف أضعاف المجاهدين من المسلمين . فلم يكن للأحنف بد من لقاء الملوك الثلاثة : يزدجرد ، وخاقان ، وغوزك ، رغم قلة من معه من أبطال الحرب . وكان الأحنف قد اختبر قبل ذلك حرب الفرس وعرف كيف يذل كبرياءهم ، إلا أنه وجيوشه يجهلون إلى ذلك الوقت أساليب الترك فى الحرب ، فرأى أن يختبر ذلك بنفسه على رأس طليعة من أصحابه ؛ فطاف فى الليل حول معسكر خاقان ، فلما انبلج الفجر خرج فارس منهم بطوقه وضرب بطبله ، فخرج له الأحنف واختلفا طعنتين ، فطعنه الأحنف وهو يقول :

إن على كل رئيس حقـا
أن يخضب الصعدة أو تندقا
إن لنـا شيخا بهـا مُلَقَّى
سيف أبى حفص الذى تبقى

وبعد قليل خرج له فارس آخر من الترك فطمنه الأحنف وهو يرتجز .

إن الرئيس يرتبى ويطلعُ
ويمنع الخُلاء إما أربعوا

ثم خرج له ثالث فطمنه الأحنف وهو يقول :

جَرْيَ الشموس ناجزاً بناجزْ
محتفلا فى جريه مُشارز

وانصرف الأحنف إلى معسكره ولا يعلم أحد بما فعل ؛ وكان من عادة الترك أن لايخرجوا للقتال حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم على نحو ما وقع . فلما خرجوا بعد الثلاثة فرأوهم صرعى ، تشاءم خاقان وتذكر ما كان يسمعه عن انتصارات العرب وأنهم لاُيغلبون ، فانصرف إلى بلخ وتبعه الصغد ، ومنع الأحنف جيوشه من اتباعهم . ووقع الخلاف بين يزدجرد وقومة فكان هو يريد اللحاق بخاقان ومعه الأموال ، وهم يريدون التفاهم مع العرب . فمضى يزدجرد إلى فرغانه والترك فأقام عندهم مدة عمر ، وبقيت الأموال مع الذين أرادوا مصالحة العرب فكان للإسلام من ذلك خير عظيم ، وكان للفرس من عدل العرب ما لم يسبق له نظير فى التاريخ .

الانتقـاض :

ولمـا وصلت الأخبار إلى خراسان بمؤامرة الهرمزان فى المدينة واغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انتقضوا ، وكفر من أسلم منهم ، وكانت البلاد فى سلم ، والجيوش تجاهد فى آفاق أخرى ، فاحتاجت إيران إلى فتح جديد . وعاد الأحنف فى مدة عثمان إلى استئناف بطولته ، إلا أنه فى هذه المرة كان على علم بمسالك خراسان ومواطن القوة والضعف منها ومن أهلها ؛ فـكان عظيما فى كل ما دوّنه التاريخ من حوادث جهاده .

الفتح الثانى لخراسان :

وكان هذا الفتح الثانى وولاية العراق لعبد الله بن عامر بن كريز الأموى ، وكان شابا فى الخامسة والعشرين من عمره . فلما تقرر استئناف فتح خراسان قسمت البلاد إلى ست جبهات حربية ، كان الأحنف قائد جبهة منها وفيها قلب هذه البلاد (مرو الشاهجان) و (مرو الروذ) وكان ذلك فى سنة ٣٠ للهجرة . وعرف الأحنف كيف يرغم (مرو الروذ) على الخضوع له بأسرع مما أخضعها فى المرة الأولى سنة ١٨ ، فكتبوا له يطلبون الصلح . وإن كتابهم ووثيقة الصلح التى كتبها لهم الأحنف أوردها الطبرى فى تاريخه (٥ : ٨١ — ٨٢) مروية عن التابعى الجليل ابن سيرين زميل الحسن البصرى . ولا حظنا فى أسماء الشهود أسماء مجاهدين من بنى تميم بقسميهم (بنى عمرو وبنى سعد) مما دل على أن الأحنف كان يومئذ سيد الشعبين جميعاً . ودلت الوثيقة أيضاً على أن من أصفياء الأحنف الذين ارتضاهم للتوقيع على شهادة الصلح اثنين من قبيلة مازن بن مالك بن عمرو بن تميم التى قتلت أباه وجعلته يتيما ، وهما حميد بن الخيار المازنى وحمرة بن الهرماس المازنى ؛ فالإسلام أصفى قلوب الجميع وجعلهم أصفياء فى الله . ولا حظنا فى هذه الوثيقة أيضاً أن خَتم الأحنف كان منقوشاً عليه (نعبد الله) .

موقف عسكرى حرج :

وكان الأحنف فى هذا الفتح الثانى على رأس قوة خفيفة فى طخارستان لا تزيد على أربعة آلاف مجاهد ، فأقبل حتى نزل فى موضع سمى فيما بعد باسم (قصر الأحنف) فوجدوا أن أهل طخارستان والجوزجان والطالقان والفارياب أعدّوا له بعد استرداده (مرو الروذ) ثلاثة زحوف فى ثلاثين ألفاً . فماذا يصنع أربعة آلاف عربى أمام هذه الزحوف ؟ صلى الأحنف العشاء الآخرة ودعا إلى خيمته أهل الرأى من قادة هذا الجند القليل واستشارهم ، فأشار بعضهم بالانسحاب إلى مرو الروذ ، وخشى بعضهم أن يستضعفهم أهل مرو الروذ فينقضوا الصلح فأشار بالانسحاب إلى (آبر شهر) ، واستنكر بعض أهل الرأى فكرة الانسحاب وأشاروا بالثبات والاستمداد بسرعة من المعسكر العربى العام ، وأيد آخرون هذا الرأى وزادوا عليه أنه إذا أبطأ عليهم المدد يناجزون العدوّ مستميتين حتى ينال الشهادة آخر من يبق منهم .

وصرف الأحنف مستشاريه إلى خيامهم ليناموا ، وقام يصلى ويدعو الله ، ثم أخذ سيفه ، وقام يمشى فى أنحاء معسكره ، فرأى خيمة فيها نور ونار ، ورجلا يقول لأصحابه وهو يوقد النار تحت طعام لهم : الرأى للأمير أن يسير — إذا أصبح — حتى يلقى العدو فيناجزهم فإنه أرعب لهم ، وآخر يقول : إن فعل الأمير ذلك فقد أخطأ ، أتأمرونه أن يلقى العدو مصحراً فى بلادهم بعدد قليل لعدد كثير فإن جال جولته اصطلمونا ؟ لكن الرأى له أن ينزل بين قرية المرغاب والجبل فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره ، فلا يبقى مجال لعدوه — وإن كثروا — إلا أن يلقوه بعدد أصحابه ، لأن خط القتال لا يتسع لأكثر من ذلك . وفى الصباح المبكر كان الجيش العربى يحتل ذلك الموقع بين المرغاب والجبل . وقبل أن يبدأ القتال وصل إليه رسول من أهل مروالروذ يذكرون أنهم مستعدون للنجدة وفاء بما شرطوا على أنفسهم فى عهد الصلح ، فقال لهم : إنى أكره أن أستنصر بغير جنودى ، فأقيموا على ما أعطيناكم فإن ظفرنا فنحن على ما جعلنا لكم ، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم على وفائكم لنا فقاتلوا عن أنفسكم .

ونشبت المعركة فى النصف الثانى من النهار وصبر الفريقان حتى أمسوا ، والأحنف يقاتل وهو يتمثل بشعر ابن جؤية الأعرجى :

أحق من لم يكره المنيَّهْ
حزوَّرٌ ليست له ذريَّهْ

واستمر القتال ليلا حتى ذهب عامة الليل ، ثم هزم الله هذه الجموع ، وأعمل بنو تميم فيهم سيوفهم حتى انتهوا من مطاردتهم إلى (رسكن) وهى على بعد ١٢ فرسخاً من قصر الأحنف . ويروى الأديب الكبير المفضل الضبى عن أبيه أن الأحنف بعث الأقرع بن حابس فى جريدة خيل إلى بقية الزحوف فأظفره الله بهم ، وفى ذلك يقول كثير النهشلى :

سقى مزنُ السحاب إذا استهلت
مصارعَ فتيــــة بالجوزجان
إلى القصرين من رستاق خوط
أقادهم هنـــــاك الأقرعان

يحتقرون الذهب :

وبعد أن استتب الأمر للأحنف فى (مرو الروذ) واصل زحفه إلى (بلخ) وافتتحها صلحاً على أربعمائة ألف درهم فى السنة ، فندب الأحنف ابن عمه أسيد بن المتشمس لقبض المال بعد جمعه ، وتقدم يتحسس لجهاده ميادين أخرى . وانتظر ابن عمه فى بلخ ، فحلّ عيد المهرجان (عيد النار) وهو هناك ، فبعد أن تسلم منهم الجزية الرسمية المتفق عليها ، جاءوه بهدايا شخصية من آنية الذهب والفضة ، وبدنانير ودراهم ومتاع وثياب ، فسألهم أسيد .

— وهل هذا مما صالحناكم عليه ؟

قالوا : لا . ولكنه شيء نقدمه فى مثل هذا اليوم من كل عام لمن يتولى أمرنا نستعطفه به .



فأجابهم : إنى أكره أن أردّه ، ولعله من حق . ولكنى أعزله حتى أنظر . . . وقبضه وقدم على الأحنف فأخبره بما وقع ، فسأل الأحنف أعيان البلاد عن ذلك فقالوا : هى هدية اعتدنا تقديمها لمن يلى أمورنا فى هذا اليوم من كل عام . فتوقف الأحنف عن أخذها وحملها إلى القائد العام عبد الله بن عامر بن كريز ، فقال له ابن عامر : اقبضها يا أبا بحر ، فهى لك .

قال الأحنف : لاحاجة لى بها .

فرأى ابن عامر أن الهدية لا تردّ ، وأمر أحد رجاله بأن يضمها إلى الأموال الرسمية ، وجعل شكره لله على هذا الفتح أن يخرج محرماً من نيسابور إلى مكة ، فلامه أمير المؤمنين عثمان على ذلك ، وقال له : كان ينبغى لك أن تحرم من الميقات الذى يحرم منه الناس .

الانتقاض الثانى لخراسان واستردادها :

وفى السنة التالية (٣٣ هـ) تلقى عبد الله بن عامر بن كريز خبر انتقاض خراسان مرة ثانية ، فرمى بها الأحنف بن قيس للمرة الثالثة ، فقاتلهم قتالا شديداً اضطروا بعده إلى الاستسلام ، وفتح الله له مرو الشاهجان ومرو الروذ الفتح الثالث .

في خلافة أمير المؤمنين على :

وكان الأحنف عند وقوع الشهادة لأمير المومنين عثمان سنة ٣٥ فى الحج ، فبايع للخليفة الراشد الرابع أمير المؤمنين على ، إلا أنه رأى أن قتال أم المؤمنين وحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر شديد ، وأن قتال ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد أيضاً ، فاعتزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة ، واعتزل معه ستة آلاف من تميم . وفى صفين كان مع أمير المؤمنين على ، فلما صفا الأمر لمعاوية كان الأحنف مع الجماعة .

حياته السلمية :

للأحنف سيرة فى سلمه أنبل وأعظم من سيرته فى حربه . وفيها من الوقائع — التى تدل على حكمته ، وعلى صلاحه ، وعلى أنه كان ركناً فى الأمة — مالا تتسع لبيانه صفحات كثيرة ، ولعلى أعود للكلام عليه فى فرصة أخرى .

ولو اتسع المجال لعرض حياته السياسية بعد عرض حياته الحربية لكان حقاً لى أن أقول إن أمثال الأحنف كانوا فى دولتهم فى مقام نواب الأمة وشيوخها فى زماننا ، وهم فى ذلك المقام يسمون باصطلاحنا الإسلامى (أهل الحل والعقد) ، ولم يكونوا ينتخبون بالأساليب والوسائل التى كان ينتخب بها الشيوخ والنواب ، ولا الذين يرفعونهم إلى تلك المنزلة كالذين كان لهم حق الانتخاب للشيوخ والنواب ، بل كان لأسلافنا طرق أخرى لبلوغ تلك المرتبة ، وعماد الكفاية لذلك (الأخلاق) ، والأخلاق لا ينبغ المتفردون بها كالأحنف إن لم يكن لهم أساس من أخلاق الجمهور ، ولا يكون هذا إلا بالرجوع إلى الإسلام وأساليبه الاجتماعية وكيانه الخلقى .

فهل فى علمائنا من يتفرغ لدراسة هذه الأمور إلى جانب دراسة تاريخ العروبة والإسلام لنتمكن من بعث ذلك الماضى فنسترد به وبأخلاقه مكانتنا فى الأرض ؟ .

إن هذا ليسير جداً إذ نحن أردنا .

إن لبدنك عليك حقاً

بإشراف اللواء الدكتور أحمد الناقه

س ١ : بنته صغيرة الحجم لم تبلغ الثامنة تنزل دما ، فهل هو حيض ؟

ج ١ : قد يحدث الحيض المبكر مصحوبا بمظاهر البلوغ أحيانا . ولكن يجب الفحص الطبي فقد يكون للنزيف أسباب أخرى مثل : جسم غريب فى المهبل ، ورم ، مرض فى الدماغ أو الكلى .

* * *

س ٢ : ما علاج فقر الدم الشديد فى الحامل ؟

ج ٢ : الغذاء الجيد والأدوية التى تحتوى على الحديد والفيتامين وحقن الجير مع علاج أى مرض كامن .

* * *

س ٤ : يسمع جده ضجة (وشا) فى أذنيه فما السبب وما العلاج ؟

ج ٤ : هذه الضجة كثيرة فى كبار السن ولا ضرر منها . وسببها قلة الدم الجارى فى الشرايين المتصلبة فى جهاز السمع . وربما أفادت بعض الأدوية التى توسع الأوعية الدموية . وقد تحدث هذه الضجة فى أى سن مع استعمال بعض العقاقير : سليسلات . ستربتوميسين . كينا . وغيرها ، فإذا تركت زالت الضجة .

* * *

س ٥ : طالبة جامعة يعتريها الصداع والخمول وضيق الصدر كلما عكفت على مذاكرة دروسها وقد تدوخ . فهل هى مريضة بالقلب ؟

ج ٥ : ليست هذه أعراض مرض القلب ، ولكنها أعراض نفسية لا ينفع فيها الدواء ، وإنما يفيدها حل متاعبها ومشكلاتها بعد بحث ظروفها المنزلية والجامعية والعاطفية .

* * *

س ٦ : طال مرض القلب على ولده ، وعجز عن نفقة الغذاء بلحم الدجاج ، والدواء الغالى . يريد حلا .

ج ٦ : أدخله مستشفى يعالج فيه بالمجان أو بأجر زهيد ، أو صارح الطبيب المعالج يغير الغذاء والدواء على قدر طاقتك المالية وبما يناسب حالة المرض ؛ وكثيراً ما ثبت أن الغذاء البسيط والدواء الرخيص أجدى على المريض وأدعى للشفاء .

* * *

س ٧ : ضعيف البنية استعمل الأدوية والحقن المقوية سنتين ولم يستفد .

ج ٧ : لا يمكن أن يؤخذ العلاج المناسب حولين بلا فائدة إلا أن يكون فى البدن أمراض أخرى كامنة تعوق الشفاء ، فأعد الفحص الطبى .

* * *

س ٨ : أصيبت زوجته بالتدرن الرئوى (السل) وعولجت بالمستشفى وعادت بعد شهور إلى المنزل بصحة جيدة ، هل تمتد العدوى إليه وإلى الأولاد ؟

ج ٨ : لا خوف من العدوى إذا ثبت أن البصاق خال من جرثومة الدرن ، ومادامت مستمرة فى حقن الهواء فى عيادة أمراض الصدر ، فإذا ظهرت جراثيم المرض فى البصاق لزم عزل المريض فى غرفة مستقلة إذا أمكن ، والاحتياط عند البصق والسعال حتى لا يتلوث جو المنزل ، واتباع إرشاد عيادات الصدر وأطبائها .

* * *

س ٩ : يخشى جراحة البواسير لأنه مريض بالقلب .

ج ٩ : أغلب مرضى القلب يحتملون الجراحات الكبرى ، ولكن يجب علاج هبوط القلب قبل الجراحة ، ويحسن عدم إجراء الجراحة بعد سن الخمسين وبخاصة مع تصلب الشرايين عامة وشرايين القلب خاصة .

* * *

س ١٠ : هل استئصال اللوزتين ضرورى للأطفال وهل هو ضار بالكبار ؟

ج ١٠ : اللوز حارس الزور من الجراثيم ، وما دامت سليمة فلا يجوز استئصالها. أما إذا مرضت وضعفت عن المقاومة واحتلتها الجراثيم فاستئصالها واجب فى الصغار والكبار على السواء ، وإلا كانت مصدراً دائما لأمراض شتى تستعصى على العلاج .

باب الكتب : نقد وتعريف

١ — قصص النبيين للأطفال ، للأستاذ أبو الحسن الندوى .
مطابع دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٤ ، ١٢٤ صفحة
من القطع المتوسط .

لا بد للأطفال من غذاء للعقل والعاطفة والإحساس ، فضلا عن غذاء الجسم ، والعناية بذلك الضرب من الغذاء نراها شديدة لدى الأمم التى ترى فى الأطفال رجال المستقبل وعدته ، وصديقنا الأستاذ أبو الحسن الندوى يوجّه لهذه الناحية قسطاً كبيراً من وقته وجهده الذى وقفه على الشئون الإسلامية بعامة .

ويشهد الذين سعدوا بمعرفة الأستاذ معرفة شخصية ، أو عرفوه من كتاباته أنه رجل داعية للإسلام من الطراز الأول ، وأنه « يعيش بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام » ، كما يقول أخونا الفاضل الأستاذ سيد قطب فى مقدمة هذا الكتاب الذى يسرنا تقديمه لناشئة الإسلام فى مجلتهم المحبوبة المباركة .

وهذا الكتاب حرى أن يكون مفيداً للصغار والكبار معا . وجزؤه الثالث الذى بين أيدينا الآن يقوم على قصة موسى عليه الصلاة والسلام ؛ ففيه تحليل لعناصرها واستخراج لما فيها من عبر وعظات وما أكثرها ! كما فيه — كما يعبر الأستاذ سيد قطب — توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامى القصة وحوادثها ومواقفها ، وتعليقات داخلة فى ثنايا القصة ولكنها توحى بحقائق إيمانية ذات خطر ، حين تستقر فى قلوب الصغار والكبار .

وللأستاذ أبو الحسن الندوى ما يعرفه قراؤه الكثر من تعمق الإسلام ، ونفاذ البصيرة ، وإشراق الأسلوب فى بساطة ويسر ، وبذلك ينفذ حقا إلى القلوب والعقول ، ويقع قارئه فى حيرة إن أراد أن يتخير من كتاباته ما يدلل به على خصائص كاتبها ، فكل ما كتب خيار من خيار . ولهذا أجدنى حقا فى حيرة إن حاولت هذا التدليل من الكتيب الذى نقدمه بهذه الكلمة ، ولذلك أدع الأمر للقارىء يمتع قلبه وعقله وحسه بقراءته كله .

ومع هذا أشير إلى ما جاء عن « الحق والباطل » (ص ٥٨ — ٦١) حيث اجتمع السحرة وموسى على مشهد من فرعون وملئه ، وحين أحسّ موسى عليه الصلاة والسلام بالخوف إذ رأى أفاعيل السحرة . ومع هذا ، فهو لم يخف على نفسه ، بل لأنه « ليس غلب موسى غلب رجل ، بل غلب دين أمام ملك ، بل هو غلب حق أمام باطل » .

وكذلك أشير إلى ما جاء عن مصير بنى إسرائيل بعد موسى (ص ١٢٣ — ١٢٥) حين أسخطوا الله الذى جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكا وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، الله الذى أنجاهم من فرعون وجبروته ، وجعلهم أحرارا بعد أن كانوا أذلة مستعبدين ، فكان أن سخط الله عليهم ، وما ظلمهم ولكنهم كانوا أنفسهم يظلمون .

بارك الله فى حياة صديقنا الأستاذ أبو الحسن الندوى ، هذه الحياة الخصبة المثمرة المباركة ، وأفاد بما كتب ويكتب الإسلام وبنيه ، وآتاه ثواب المخلصين المجاهدين الذين صدقوا الله ورسوله .

***

٢ — الدين والدولة فى الإسلام ، للأستاذ مصطفى السباعى ، المطبعة الهاشمية بدمشق ، ٩٦ صفحة من القطع الصغير .

هذه هى الرسالة الثانية من سلسلة رسائل : « هذا هو الإسلام » ، وهو موضوع تمنيت منذ سنوات أن يتفرغ له بعض المختصين ، حتى يبيّن للناس الإسلام الحق وموقفه من المشاكل العالمية . وأخونا الفاضل الذى نصب نفسه لتجلية هذا الموضوع أهل لما تصدى له ؛ فهو متخصص فى هذه الناحية ، وأستاذ فى الشريعة الإسلامية . ولذلك نغتبط بهذه الرسالة ، كما أغتبطنا بسابقتها : نظام السلم والحرب فى الإسلام .

وهذه الرسالة التى بين أيدينا تتناول موضوعا حيويا ، يشغل كثيراً من المفكرين وكثيراً من الشباب المسلم وغير المسلم فى البلاد العربية والإسلامية ، ولهذا تحتاج معالجته إلى أناة وريْث وكثير من الحذر ؛ كما تحتاج إلى إحاطة بتاريخ مسألة فصل الدين عن الدولة فى المسيحية والعالم الغربى بعامة ، وإلى مقارنات لابد منها بين الديانات الوحيية الثلاثة . ولكن وضوح الحق فى المسألة ، مما يعين على معالجتها فى شىء من اليسر من الناحية المسيحية والإسلامية على السواء .

وقد وفّى الأستاذ الكاتب بما يتطلبه هذا البحث من خطوات ، ليصل به إلى نتيجته الطبيعية والمنطقية ؛ فهو يعرض أدلة من يقول بوجوب فصل الدين عن الدولة ثم يناقشها (ص ٥ وما بعدها) ، ويعرض لما مرت به المسيحية فى أوربا حتى انتهى رجال السياسة إلى تقرير الفصل بين هاتين السلطتين ، مبيناً الأسباب التى أدت إلى هذا الفصل (ص ١٥ وما بعدها) ، ومن هذه الأسباب نشوء طبقة رجال الدين ، وما صار لها من سلطة لايدانيها سلطة أخرى ، حتى صار للبابا سلطة خلع الأباطرة أنفسهم و« حرم » من يشاء و« الغفران » لمن يشاء (ص ٢٠ — ٢١) ، وبهذا أصبح فصل الكنيسة ورجالها عن الدولة أمراً محتوما ولا بد منه لصلاح الدولة نفسها .

وبعد أن وصل إلى هذه النتيجة الصحيحة ، نراه يعرض للمسألة فى الإسلام ، فيبين أن الإسلام بعقائده وتعاليمه والأسس التى يقوم عليها لا يجعل وجهاً لقيام هذه المشكلة بالنسبة إليه ؛ فالإسلام لا يعترف بوساطة ولا وسطاء بين الرب والعبد ، ولا يجعل غفران الذنوب إلا لله وحده ، ولا يعرف طبقة تسمى « رجال الدين » ، فالكل أمام الله سواء (ص ٣٥ وما بعدها) . بل إن الإسلام ، بهذه الدعائم التى قام عليها ، يجعل التعاون بين الدين والدولة أمراً لابدّ منه ، والدليل على ذلك التاريخ الصادق أيام الراشدين والأمويين والعباسيين ، ثم أيام حكم المسلمين فى الأندلس (ص ٦٦ وما بعدها) .

ثم ينتقل بنا الأستاذ المؤلف إلى مقارنات أخرى صحيحة بارعة بين الإسلام والمسيحية حول المسألة نفسها موضوع البحث (ص ٧٦ وما بعدها) ، ومن هذه المقارنات يتبين « أن ربط الدولة بالدين فى أوربا أدى إلى اضطهاد الفكر وخنق الحريات ، وقيام الحروب الدينية المفجعة ، وخضوع الناس لكابوس الخرافة والجهالة والبؤس . أما ربط الدولة بالدين فى عصور الإسلام الزاهرة ، فقد أدى إلى انطلاق الفكر ، وحماية الحريات الدينية ، وإشاعة الرغد والسلام بين أبناء الديانات ، وتحرير الناس من أوهام الخرافات والشعوذة ، وتحقيق الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية بين أبناء الشعوب » (ص ٧٧ — ٧٨) .

ويختم الأستاذ بحثه القيم بهذه الكلمة : قال المؤرخ الشهير المعاصر (ه . ولز) :

« لا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء ومعلمون ووعاظ ، ولـكن ليس له كهنة ولا قساوسة » . فـكان هذا أبلغ جواب لمن يدعو بيننا إلى إقصاء رجال الدين عن الحياة السياسية ، بأن هذه المشكلة ليست فى الإسلام بذات موضوع (ص ٩٥ — ٩٦) .

هذا ، وقد عنى الأستاذ الباحث عناية طيبة ببيان المراجع التى أفاد منها ، كما لم يقصر فى الإفادة من المراجع الأجنبية .

وإذا كان لنا رجاء نتقدم به إليه فهو أن يعمل على تنمية ما اعتزم كتابته من هذه الرسائل ، ومراجعة التى بين يديه كفيلة بأن يكون عنها رسائل أوسع وأكثر استقصاء وبسطاً لهذه الموضوعات الحيوية ، وهل عذره هو الرغبة فى عدم إملال القارئ ، وفى أنه يجب أن يتجه قبل كل شىء للشباب الذين يحبون الإيجاز والسرعة فى كل ما يقرءون ؟ .

الدكتور محمد يوسف موسى

هكذا يقول البلغاء

* ط و س — طوّس المصور : صوّر الطواويس .

ومن المجاز : إن فلاناً لطاوسٌ إذا كان جميلاً .

ووجه مطوّس . قال أبو صخر الهذلى :

ومطوّس سهل مدامعه لا شاحب عارٍ ولا جَهْمِ

وتطوّست المرأة : تزينت . وعنده الطاوس أى الفضة بلسان اليمن .

وقال الجاحظ : الحمام يكسح بذنَبه حول الحمامة ويتطوّس لها أى يتنفّش .

وتقول : كان خُلُق طاوس ، يحكى خَلْقَ الطاوس ؛ وهو طاوس اليمانىّ .

« الزمخشرى »

مع العارفين

طاوس اليمانى

[إنى لأظن طاوساً من أهل الجنة]
« ابن عباس »

أما طاوس الفقيه ، فهو من يعرف رواء الفقه ... واحد من فقهاء المدينة السبعة الكبار ، ومن أجلة التابعين ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أندى الأحاديث التى تجد فيها ريح النبوة ؛ ولا عجب ، فقد اتصل بها عن طريق عدد من الصحابة نهلوا من نبعها الصافى الصريح . قال طاوس : « أدركت خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان ؛ أول الطبقة من أهل اليمن ؛ وكأنه جاء تصديقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة ، وألين قلوباً ؛ الإيمان يمان ، والحكمة يمانية . . »[1] .

تجد فيه لين القلب ورقة الفؤاد .

وتحس فيه الإيمان الذى يحكم الأعصاب ويستولى على الجوارح .

وتلمس فيه الحكمة السهلة حية قريبة المنال .

أما لين قلبه ورقة فؤاده فتمثلها خشيته التى نصب لها من الظواهر العادية التى يمر بها أى إنسان فلا تحرك فيه ساكناً ، ولا يثير منظرها فيه خفقان قلب -- من هذه الظواهر العادية اتخذ طاوس لخشيته معالم تتضافر على تذكيره كل حين بالآخرة والحساب ، والنار والعذاب . قال عبد الله بن بشر : إن طاوساً اليمانى كان له طريقان إلى المسجد ، طريق فى السوق وطريق آخر ؛ فكان يأخذ فى هذا يوماً وفى هذا يوماً ؛ فإذا مر فى طريق السوق فرأى تلك الرؤوس المشوية لم ينعس تلك الليلة !

ويمثل طاوس الهلع من نار جهنم تمثيلاً طريفاً فيقول : لما خُلقت النار طارت أفئدة الملائكة ، فلما خُلق آدم سكنت أفئدتهم ...

---

(١) أخرجه الثلاثة والترمذى .

وإنه ليحاسب نفسه على أنين المرض يعتبره كلاما يحاسب عليه فيقول : « ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا أحصى عليه حتى أنينه فى مرضه » وهذا غاية الدقة فى المقاييس التى أقامها لنفسه فى مراقبة الله عز وجل .

ولعل هذه الخشية فى طاوس أثر مباشر لحديث رواه طاوس نفسه عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأى مَخْيَلَةً[1] تغير وجهه ، ودخل وخرج ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سُرِّى عنه ، فذكرت له ذلك فقال : ما أمنت أن يكون كما قال الله عز وجل : « فلما رأوه عارضاً مستقبِلَ أوديتِهِم قالوا هذا عارضٌ مُمطِرُنا ، بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم » .

إلا أن هذه الخشية التى تقضُّ المضجع وتنفى عن العين الكرى ، لا تقنع طاوساً ، بل لا يراها خشية ذات غَناء . قال داود بن شابور : قال رجل لطاوس : ادع الله لنا . قال : ما أجد فى قلبى خشية فأدعو لك ! !

وهى خشية العارف التى لاتشوبها شائبة من خرافة ، أو تخامرها هنة من تطير . فقد روى أن رجلا كان يسير مع طاوس فسمع غراباً فقال : خير ! فقال طاوس : أى خير عند هذا أو شر ؟ لا تصحبنى ! !

وإذا أحببت أن تعلم دقة مقاييسه ورهافة حسه فاسمعه يحدثك : إن الملائكة ليكتبون صلاة بنى آدم : فلان زاد فيها كذا وكذا ، وفلان نقص كذا وكذا ، وذلك فى الخشوع والركوع ... إن لين قلبه ورقة فؤاده تجدها متجاوبة مع ماروى من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلاوة القرآن . روَى عن ابن عباس « إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به » وعن ابن عباس أيضاً « سئل النبى صلى الله عليه وسلم : من أحسن الناس قراءة ؟ قال : من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله » .

وإذا عرفت أن طاوساً حج أربعين حجة ، علمت مقدار شغفه رضى الله عنه بهذا المنسك العظيم . ولقد كان يشهده فى إقبال على الله وتمتع بعبادته . وإنك لتجد استمتاعه بالحج بيِّناً فى قول ابنه عبد الله « كان سيرنا إلى مكة مع أبى شهراً ، فإذا رجعنا سار بنا شهرين ، فقلنا له فى ذلك فقال : بلغنى أن الرجل لايزال فى سبيل الله حتى يأتى بيته » وشدة تعلقه بهذا الضرب من العبادة تدلنا على مبلغ التضحية التى بذلها

(١) المخيلة : السحابة تخالها ماطرة لرعدها وبرقها .

قضاء لحق أخ له فى الله احتاج رعايته فى مرضه . حدث معمر أن طاوساً أقام على رفيق له مريض حتى فاته الحج !

كان رضى الله عنه وسيماً مشرقاً ، وكانت سيماه تنم عن فضائله ومزاياه . قال الزهرى مرة لسفيان بن يعمر : لو رأيت طاوساً علمت أنه لا يكذب .

وإذ روى طاوس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : « حق على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام كاغتساله من الجنابة ، يغسل رأسه وجسده يجعل ذلك يوم الجمعة » تجده دائماً نقى البشرة نظيف الثوب ، بل إنه لا يطيق القذارة أن يراها فى غيره . رأى طاوس رجلاً مسكيناً فى عينيه عمش وفى ثوبه وسخ ، فقال له : عد ، إن الفقر من الله ، فأين أنت من الماء ؟!

ومن شأن طاوس أنه كان يقوم الليل ولا ينام السحر قط . يحض على القيام فيقول : ألا رجل يقوم بعشر آيات من الليل فيصبح قد كتب له مائة حسنة أو أكثر من ذلك ؟ ويرى لما اعتاده من قيام السَّحَر أنه أمر طبيعى لا يهمله إنسان ، فإذا عرف فى الناس ترك ذلك قال متعجباً : وهل ينام السحر أحد ؟!

هذه الصلة الوطيدة بالله مع المراقبة الدقيقة والخشية الدائمة ، جعلته فى حصن من عزة المؤمن حصين ؛ وعند العارف كل ما دون جلال الله زيف وبهرج وهباء لا يأبه به ولا يلتفت إليه (وكل الذى فوق التراب تراب) قال سفيان : حلف لنا إبراهيم ابن ميسرة وهو مستقبل الكعبة : ورب هذه البنية ما رأيت أحداً الشريفُ والوضيع عنده بمنزلة إلا طاوساً .

وكلما ازداد أحد منعة فى أسباب الدنيا ازداد هواناً فى عين العارف البصير . حدث عبد الرزاق قال : « قدم طاوس مكة فقدم أمير فقيل له إن من فضله ومن ومن ... فلو أتيته . قال : ما لى إليه حاجة . قالوا : إنا نخاف عليك (أى إذا لم تأته) قال : فما هو إذن كما تقولون ! » .

وإنها لسنة ماضية أن يبتلى بالدنيا من يعرض عنها ، ويمتحن بأهل الجاه والسلطان كل من هان عليه أهل الجاه والسلطان ، وقلَّ من يفوز فى هذا الامتحان . إن المنزلة العالية التى جعلها الله لحملة العلم لا بد وأن تناسب منعة العالم حيال المال المبذول لكمِّ فيه ، والجاه الممنوح لاستغلال مواهبه وفتاويه . وقد نال طاوس فى هذا المجال رتبة هيأه لها تمرسه فى تربية نفسه ، واتصاله الوثيق بربه ، ولم يقع فى الشرك الذى نصبه له بعض الولاة ليحملوه على ما يريدون .

حدث النعمان بن الصنعانى أن محمد بن يوسف أخا الحجاج بن يوسف (أو أيوب بن يحيى) بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار أو خمسمائة ، وقيل للرسول : إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك .

فخرج بها حتى قدم على طاوس الجند[1] فقال : يا أبا عبد الرحمن ، نفقة بعث الأمير بها إليك .

قال : ما لى بها من حاجة !

فأراده على أخذها ، فأبى أن يقبل طاوس . فرمى بها فى كوة البيت ثم ذهب فقال لهم قد أخذها !

فلبثوا حيناً ثم بلغهم عن طاوس شيئاً يكرهونه فقال: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا!

فجاءه الرسول فقال : المال الذى بعث به إليك الأمير .

قال : ما قبضت منه شيئاً .

فرجع الرسول فأخبرهم فعرفوا أنه صادق ، فقال : انظروا الذى ذهب بها فابعثوه إليه ، فبعثوه فجاءه وقال : المـال الذى جئتك به ياأبا عبد الرحمن .

— هل قبضت منك شيئا ؟

— لا

— هل تعلم أين وضعته ؟

— نعم ! فى تلك الـكوة .

— انظر حيث وضعته .

فمد يده فإذا هو بالصرة قد نبت عليها العنكبوت ، فأخذها فذهب بها إليهم !...

وقال ابن عيينة : قال عمر بن عبد العزيز (إذ كان والياً) : ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين — يعنى سليمان بن عبد الملك — فقال طاوس : مالى إليه من حاجة .

قال (عيينة) : فـكأنه عجب من ذلك .

ولـكنه لم يكن ليعجب لو سمع عطاء يقول : جاءنى طاوس فقال : يا عطاء ، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه وجعل دونك حجاباً ، وعليك بطلب حوائجك إلى من بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعوه ووعدك بالإجابة . (يتبع)

(١) الجند : مدينة باليمن .

عَلَى البَابِ!!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

كلُّ الخطايا في يَدي   ياربِّ أجِّلْ مَوْعدي !

فتَوْبتي موْءودةٌ   في مهدها لم تُولَدِ

ما زلتُ أدعو الله عمْ   راً ثانياً لجسَدي

أُعيدُ فيهِ سيرةً   للرُّوح منذ مَوْلِدِي

نقيَّةً من كلِّ ما   يقُضُّني في مَرْقدي

بريئةً من كلِّ ما   يَشْوِى الرُّؤَى في خَلَدي

ويجعلُ الإيمانَ في   نفْسي . . غريبَ الْبَلَدِ

يَعيش كالضَّوْءِ السَّجيـ   ـنِ في ظلامِ المعْبَدِ

تديرُهُ أغْلالُهُ   لغايةٍ لَمْ تُوجَدِ

معذَّباً كأنَّهُ   سَريرةُ المضْطهَدِ . .

أوْ ظامئٍ على سرا   بٍ ظامئٍ مقيَّدِ

أوْ طائرٌ عَلَى خريـ   ـفٍ هالعٍ مُبَدِّدِ

صَبَّ الأسَى في نايهِ   أنينَ حُلْمٍ أسْوَدِ

يَطفِرُ من قُضْبانِهِ   كمُسْتغيثٍ مُقْعَدِ . .

أوْ طارقٌ أسرارَ با   بٍ في الظلامِ مُوصدِ

يُصِرُّ . . ثمَّ ينْحنِي   في اليأس والتردُّدِ . . .

أوْ سابحٌ في لُجَّةٍ   مَطْمورةٍ بالزَّبَدِ

في جَيْب إعصارٍ على الـ   أُفقِ يَتيم الرَّشَدِ

يَزِنُ كالغَيظِ بصدْرِ الظّالمِ المقيَّدِ . . .
أوْ باحثٌ عَنْ أملٍ في نفسهِ مفتَقَدِ
أضاعهُ الأمسُ . . وضاع الأمْسُ في تيهِ الغَدِ . .
أوْ حائرٌ عَلَى ظلامٍ قلِقٍ مُسَهَّدِ
بغير نار اليأسِ لم يهْجَعْ ، ولم يُوَسَّدِ . .
أو تائبٌ . . للهِ لم يُمهِلْ ، ولم يتَّئِدِ
تنقَّلتْ أشواقهُ من موْقدٍ لموْقدِ
وللمعاصى حولها أجِنَّةٌ لم تُولدِ
تئزُّ في أحشائها بجذْوةٍ لم تَخمَدِ . .
أوْ راحلٌ بغيْر تيهِ الدّرْب لم يُزَوَّدِ
وغيْر ليلٍ كافرِ الرّاحات مصلُوبِ اليَدِ
نجومُهُ مبهوتةٌ في أُفقِها الصفَدِ
يُطِلُّ من شُعاعِها المسْحُورِ ألفُ رَصَدِ
وألفُ شيْطانٍ بَغىٍّ الْوجْه باغى الجَسَدِ
مُحَزَّمٍ من الخَطَا يَا بِشهابٍ أسْوَدِ
يَخْطَفُ كل تائبٍ بسهمه المسدَّدِ
ويجعلُ العِصيانَ للنَّدْمانِ أشْهىَ مَوْرِدِ
وَيُغرِقُ النَّاسكَ في بَحْرٍ أثيمِ المَدَدِ . .
يَصْرُخُ . . والإيمان في جنبَيْه نوَّاحُ اليَدِ
ملوِّحٌ بالنُّسْكِ والصَّلاة والتهجُّدِ
وكلِّ زُهْدٍ وتقىً للرُّوحِ أوْ تعبُّدِ
فتعْصِفُ الريحُ عَلَى دُعائهِ المبدَّدِ ! !

رَبّاهُ .. بعضَ النُّور ! قد طَمَّ الدُّجى فى خَلَدِى
سَبَحْتُ بِالإيمان فى تيهٍ عميقٍ أَبَدِى
قلبى إلى نورك نَشْوانُ بحبٍّ سَرْمَدِى
مُنْطلقٌ إلى سَماءٍ، بابُها لم يُوصَد ..
وجَسَدى مُحمَّلٌ بكلِّ ذنبٍ مُبْعِدِ !
واصلْتُ دقَّ الْبابَ حتَّى كادَ يمضى مَوْعِدِى
وكاد يُبْلينى الشجَى والنوحُ حوْل مَوْقِدِى
رَبّاهُ بعضَ التوْبِ والْغُفْرانِ لِلْمُسْتَشْهِدِ
نَزَعْتُ ذاتى ! وَانْتَهتْ حَقيقَتى للأَبَدِ
وجئْتُ أدْعو اللهَ عُمْراً ثانياً لجسدِى ! !

أبو القلوب

مَالكَ يا قلْبى عَلَى الدُّرُوبِ
تبْحَثُ عَنْ كلِّ فتىً مَنْكُوب
تصْنعُ منْ أَنَّاتِهِ وَجيبى
هَلْ أَنْتَ يا قلبى أبُو القُلُوبِ !

« عمر بهاء الدين الأميرى »

(*)

رسالة من أوسا

إلى الضمائر الإنسانيه النزيهة الطاهرة !

إلى كل نفس عزيزة ، لحمتها الحمية الدينية ، وسداها الإيمان

إلى كل شعب حر مؤمن بالله وحقوق الأوطان !

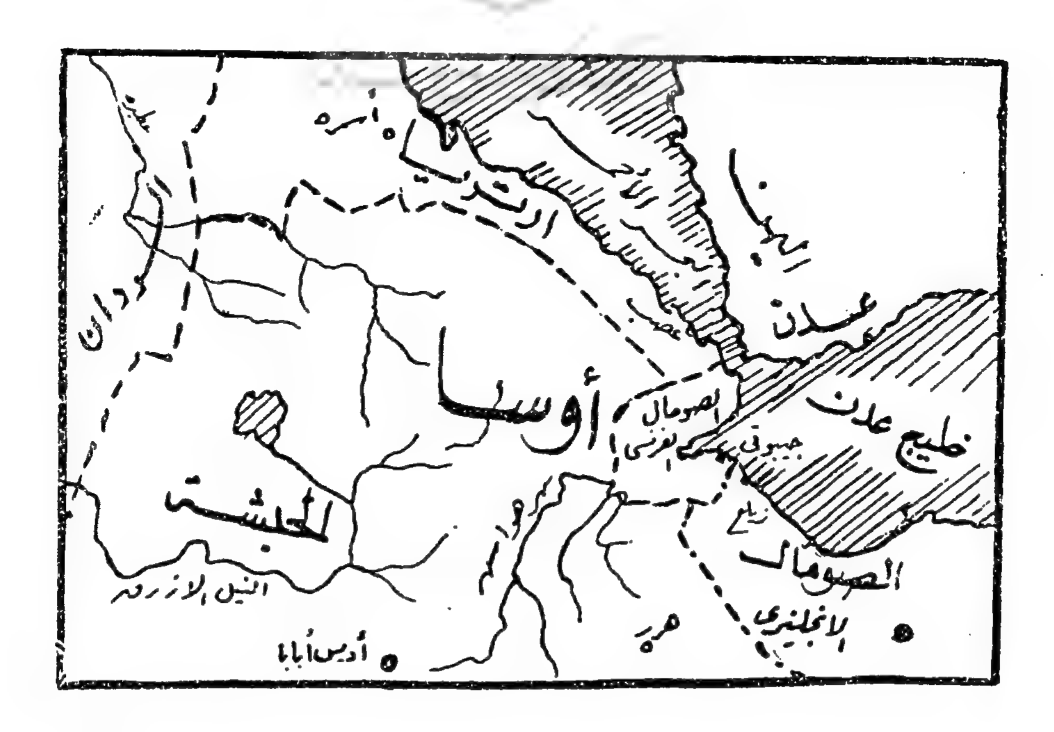
وبالتالى إلى كل هيئة رائدها الحق والعدل تنادى بحرية الشعوب وحقوق الإنسان !

أقدم هذه الرسالة التى تعرض بإيجاز آلام شعب مسلم ، يكاد الطغيان المستبد القاهر أن يستأصل شأفته ، ويستأثر بمملكته ، مستخفا بالمبادىء السامية التى تعلنها هيئة الأمم المتحدة وهو من أعضائها ! !

« م . س »

إقليم أوسا الدنكلى :

يقع إقليم أوسا فى الشمال الشرقى من بلاد أثيوبيا (الحبشة) وتمتد مساحتة من حدود هواش إلى حدود عصب ؛ وتفصله عن بلاد أثيوبيا أودية عميقة وسلسلة



(*) ننشر هذه الرسالة كما وردتنا من الشيخ الجليل صاحب التوقيع ، ويلمس القارىء فيها روح كاتبها فى « أوسا » تلك البلاد النائية من العالم الإسلامى الفسيح .

« التحرير »

عظيمة من الجبال ، ويطوّق جزءاً من بلاد أوسا نهر عظيم ميمون الغدوات مبارك الروحات ، جعل هذه البقعة ربوة ذات قرار ومعين ، تحسبها زمردة خضراء فى اللجين ، ويكثر فى هذا النهر السمك والتماسيح وفرس البحر ، وترى العشب منتشراً على شواطئه وقد غمر الماء معظم أجزائه ؛ والبهم على اختلاف أنواعها ترعى ذلك العشب . وفى الصيف تصفر تلك الأعشاب ويصيبها الجفاف ؛ وإذ داك يعمد الأهالى إلى إشمال النار فيها ، فتنتشر الحرايق على طول المروج وعرضها ، وتصبح جميع الأعشاب اليابسة رماداً تذروه الرياح ؛ ولكن الأعشاب لا تلبث على أثر ذلك أن تنمو بسرعة فى اعشيشاب واخضرار ورواء ، فكأن رماد الأعشاب المحرقة يعود سماداً دسما لها .



أما تربة هذه البقعة المباركة فإنها ذات صلاحية عظيمة لزراعة الكثير من أنواع النباتات ، ولكن الزراعة مقصورة فيها على القطن والذرة الأقل من الحبوب ؛ وذلك لأن الأهالى لا يجدون الحرية فى اجتلاب الخبراء الزراعيين من الخارج لتوسيع الزراعة وترقيتها فى وطنهم ، أو للتعاقد مع شركات أجنبية منتجة ، تنمو بالتعاون معها ثروة الشعب ، وتتحسن اقتصاديات البلاد ؛ لأن حكومة أثيوبيا قد فرضت سلطانها على هذه الإمارة الإسلامية الضعيفة قوة وإجباراً ، وضربت بينها وبين كل اتصال خارجى ستاراً من حديد مهما كان نوع الاتصال ، حتى فيما يتعلق بمناسكها الدينية ، أومصالحها الصحية أو الثقافية .

ثروتها :

يقرر كثير من العلماء الذين زاروا بلاد « أوسا » أنها ذات ثروة طبيعة عظيمة ؛ فهى معتدلة المناخ ، طيبة الهواء ، غزيره الماء ، جيدة التربة . ويوجد فيها من المعادن ما يلعب اليوم دوراً خطيراً فى اقتصاديات العالم وسياسته ، ولا سيما زيت النفط ؛ فقد ورد فى تقارير بعض العلماء الذين ارتادوا تلك الجهات أن منابعه كثيرة فى واحة « أوسا » وأورد الأستاذ أسعد بولس فى كتابه (الحبشة) : « إن ما اكتشف من منابعه فى واحة « أوسا » ما بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٥ سيجعله قريبا من أهم مصادر الثروة فى هاتيك البلاد . وقد اكتشف هذه المنابع ثلاثة من كبار الخبراء ،

أحدهم المستر نسبت ، والثانى السنيور فرانكتى ، والثالث دى برورك . . ولكن ما هنالك من الرسوم والمكوس والقيود المفروضة على مختلف الحاصلات من جهة ، وصعوبة المواصلات واضطراب حبل الأمن من جهة أخرى ، من العوامل الجوهرية فى بطء الحركة التجارية وغل أيادى التجار . . . » .

وللشعب الأوسى ثروة حيوانية عظيمة ، لأنهم يهتمون اهتماماً شديداً بتربية الماشية : من إبل وبقر وأغنام ، فينتفمون بلحومها وألبانها وزبدها وشعرها ووبرها وجلودها ، ويبلغ متوسط ما يملكه الفرد منها سبعين رأسا ، تتفاضى الحكومة الحبشية عن كل رأس منها شلنا سنويا ضريبة إجبارية دون مقابل .

أما ثروة أوسا النباتية فإنها بالنسبة إلى بركة نهرها وجودة تربتها — ضئيله جداً لا تعدو زراعة الذرة والقطن والسمسم . ومع الاقتصار على هذه الانواع فالإنتاج منها قليل لا يكاد يقوم بسد حاجة البلاد .

ويمكننا أن نعد العسل من حاصلات هذه البلاد ولو أن أهلها لا يعنون باقتناء النحل ، فهى سائمة تتخذ من الجبال بيوتا تخزن فيها عسلها .

إن المستنيرين فى الشعب الأوسى يعلمون أن شمع العسل مصدر من مصادر الثروة لماله من مكانة عظيمة فى فنون الصناعات الحديثة ، ولكن كوابيس الطغيان الغاشم هى التى تصرف العاملين عن استغلال موارد وطنهم .

ومن المعلوم أن المظالم المدمرة للهمم ، المميتة للعزائم ، تطفىء الآمالَ فى النفوس . وإذا فقدت النفوس أملها فى الاستفادة من نتائج جهودها تخمد فيها جذوة النشاط الفكرى والجسمانى ، ويغمرها اليأس ، فتستسلم للجمود والخمول والانطواء على العيش الزهيد .

الشعب الدنكلى :

إن الشعوب القديمة التى كانت تسكن الجهات الشرقية من القارة الإفريقية فى الأزمان الغابرة السحيقة ، لا يخبر عنها تاريخ ولا يدل عليها أثر ولا يروى عنها خبر إلا ما هو فى حكم الأساطير والخرافات ، تتداولها الألسنة فى تلك الجهات

فى أقاصيص بدائية سخيفة لا يصح الاعتماد عليها ؛ لأن هذه الجهات طغت عليها موجات بشرية من الهند والسند وجزيرة العرب فى بعض أدوار التاريخ ، حتى قوى تيار الهجرة إليها واشتد مدة ، ولا سيما من البلاد المجاورة لها — أى بلاد العرب — وبهذا حدث انقلاب تناسلى جارف ذابت فيه العناصر الأصلية أو انعدمت ، ونشأت على أطلالها شعوب تاريخية جديدة امتزج فى تكوينها دماء العناصر الأصلية البائدة ودماء العناصر الدخيلة الحالية .

بهذا الانقلاب الاجتماعى الخطير أسدل الزمن على عهد الشعوب الغابرة فى هذه البيئات حجباً قاتمة من الغموض والإبهام ، وأصبحت هذه الشعوب المعروفة خلفا لتلك العناصر البائدة فى امتلاك هذه البلاد .

ومن هذه الشعوب الإفريقية المعاصرة « العفرة » وهو الشعب الدنكلى المعروف فى شرق إفريقية المحاذية للشواطئ الغربية من القطر اليمنى ، والمعروف لدى المؤرخين بالعربية السعيدة . وتمتد بلاد الشعب الدنكلى من هواش إلى أرتيرية فى وحدة جغرافية تتكون من أقاليم متماسكة متصلة ، يعتبر إقليم أوسا من أغناها وأخصبها ، وهو الإقليم الذى استباحته حكومة أثيوبيا واستأثرت بخيراته ، متغاضية عن إمارته واستقلالها الداخلى ، محاولة ضمها إلى امبراطوريتها تحت سمع هيئة الأمم المتحدة وبصرها.

وقد كرسنا هذه الرسالة لعرض قضية هذه الإمارة الإسلامية وشعبها الدنكلى المسلم على دول العالم بأسرها وبوجه خاص على الدول الإسلامية .

ولا بد لنا ها هنا من الإشارة إلى بعض صفات الشعب الدنكلى ، وإلى نوع معيشته ونزعاته وميوله بإيجاز واختصار .

إن الشعب الدنكلى بوجه عام شعب هادئ مسالم، له لغة خاصة لا تمت إلى اللغة الأثيوبية بأى صلة ، بل تختلف عنها كل الاختلاف فى الأصول والفروع حتى المفردات ، ويتميز عن الشعب الأثيوبى فى تكوينه الجسمانى ، كما يختلف عنه فى التقاليد والعادات كل الاختلاف ، ويظهر أن الشعب الدنكلى لا يزال متمسكا بشىء من تقاليد أسلافه الإفريقيين البائدين ، غير أن معظم تقاليده المحافظ عليها

تسمو بها إلى درجة رفيعة من مكارم الأخلاق ؛ ولعل للتعاليم الإسلامية الفضل الأكبر فى إيجادها .

وبما أن الفرد يتأثر بالشعب الذى ينتمى إليه ويؤثر فيه ، وأن ما يصح على الفرد من حيث الصفات الأخلاقية يصح على الشعب الذى ينتمى إليه ، فيمكننا أن نحكم بأن للشعب الدنكلى من الصفات الأخلاقية ما يسمو إلى مراتب الفضل ، لأننا نلمس هذه الصفات فى كثير من أفراده .

فمن ذلك ما نلمسه فيهم من حرص وتمسك شديدين بعقيدتهم الإسلامية ، ولقد عيّت بتنصيرهم جميع البعثات التبشيرية التى أوغلت فى بلادهم وعادت أدراجها خاسرة ، ولذلك لا تجد فرداً دنكليا متنصراً ، بعكس الشعوب الأخرى المجاورة لها ، كما لا تجد منهم فتاة مؤمسا رغم حرية البغاء فى المناطق المستعمرة من بلادهم وانتشاره فى الفتيات المواطنات اللائى ينتمين إلى قبائل أخرى .

ومن صفات الفرد الدنكلى الترفع عن السؤال ، فلا تجد فيهم شحاذاً يسأل الناس إلحافاً ؛ حتى إن الفقراء منهم يترفعون عن قبول حقهم من الزكاة ويستنكرونها مهما بلغ بهم الفقر وأرهقتهم الحاجة .

ومن صفاتهم النفور والتنزه عن السرقة ، ولذلك لا تجد دنكليا سجيناً ، بل إنهم ليتورعون عن الاصطدام بكل ما من شأنه أن يفضى بهم إلى الوقوف أمام المحاكم الجنائية ، ويحرصون كل الحرص على فض مايشجر بينهم من نزاع وخصومات بواسطة هيئة منهم ، يحكّمونها دون الالتجاء إلى المحاكم القانونية .

وهم إلى ذلك شديدو التقوى والخضوع لأوامر الدين ونواهيه ، ولهم إقبال عظيم، فى رغبة ملحة ، على التفقه فى الدين ، كما أن للمثقفين بالثقافة الإسلامية ميلا إلى الاستنارة بالعلوم الغربية الحديثة .

وهم إلى ذلك يتصفون بشجاعة نادرة ، ويمتازون بقوة الأبدان وحسن التقاطيع ، ولكنهم ينزعون إلى الهدوء والمسالمة والصدق فى المعاملة بسذاجة وبراءة طبيعيين .

أما فيما يتعلق بعيشتهم فإنهم ينزعون إلى تربية الماشية من إبل وبقر وغنم وهى نزعة موروثة انتهت إليهم من أسلافهم ، وهى فى الحقيقة مدار معيشتهم ، ومنهم من يهتم بالزراعة وهم سكان المناطق الخصيبة ، إلا أن هؤلاء أيضاً لا يصرفهم الحرث عن العناية بتربية الدواب . والمتحضرون منهم يزاولون مختلف الأعمال ، وبعضهم يمارسون الأعمال التجارية ، ومنهم من يعملون فى الملاحة ؛ وهم بعض سكان الشواطئ .

ولعل فى هذه الإشارة البسيطة ما يفى بالغرض الذى نرمى إليه من تحرير هذه الرسالة .

[البقية فى العدد القادم]

« م . س »



رُبَّ خضراء الدمن

كنت مغروراً بكم إذ كنتمُ شجراً لا تبلغ الطيرُ ذُراها
لا تبيت الليلَ إلا حولها حرسٌ ترشح بالموت ظُباها
وإذا مُدّت إلى أغصانها كفُّ جانٍ قُطعت دون جناها
فتراخى الأمرُ حتى أصبحت هملاً يطمع فيها من يراها

« عربى قديم »

في أفق العالم الإسلامي

حلف تركيا — باكستان

تهتم الولايات المتحدة الأمريكية بمنطقة الشرق الأوسط — نعنى الرقعة الأرضية المحصورة بين المحيطين الهندى والأطلسى — منذ انتهت الحرب العالمية الأخيرة اهتماما ملحوظا ، ويرجع هذا الاهتمام إلى عدة عوامل ، أهمها أنها منطقة غنية بالموارد البشرية ، إذ يعيش فوقها قرابة ٥٠٠ مليون من البشر ، يجد بينهم الإنتاج الأمريكى الضخم سوقاً نافقة لسلعه وقت السلم ، فإذا مانشبت الحرب أمكن للعسكريين الأمريكيين أن يقذفوا بقطعان هائلة من هذه المخلوقات الآدمية كوقود بشرى فى أتونها المضطرم .

وهى كذلك منطقة غنية بالموارد الطبيعية ؛ ففى الشرق الأوسط ثروات بترولية هائلة ، تدر على الشركات الأمريكية التى تستنزفها ألوف الملايين من الدولارات كل عام . ومن المفارقات المضحكة المبكية أن حكومات الشرق الأوسط تبيع حريتها وسيادتها وتضع بلادها تحت رحمة العسكريين الأمريكيين نظير بضع عشرات الملايين من الدولارات الأمريكية تتصدق بها أمريكا عليها فى صورة معونة فنية أو عسكرية أو اقتصادية !

والشرق الأوسط حيوى للولايات المتحدة من الناحية الاستراتيجية . . فهو يحتوى على بعض المضايق المائية الهامة كقناة السويس وبوغازات باب المندب ، والبوسفور والدردنيل وجبل طارق ، كما أنه يتاخم حدود الاتحاد السوفيتى من الجنوب ، وهذا أمر له خطره وأهميته ، إذ تحاول أمريكا أن تقيم سياجاً حول الاتحاد السوفيتى من الدول التى تربط بعجلتها والتى تطلق عليها اسم دول العالم « الحر » ، وذلك حتى تتحمل هذه الدول الصدمة الأولى فى الحرب القادمة ، وتعرقل الهجوم السوفيتى على الولايات المتحدة فى عقر دارها قدر المستطاع ، ولابأس أن تفنى هذه الشعوب « الحرة » دفاعاً عن زعيمة « العالم الحر » ! ومقتضى هذا المنطق الأمريكى أنه من الواجب على كل دولة أن تسارع بالدخول مع أمريكا فى حلف عسكرى اقتصادى ، وأن تجعل بلادها ومرافقها وإنتاجها وسياستها رهن تصرف العسكريين الأمريكيين . . وبالاختصار تصبح — كتركيا — « بيدقا » تحركه الأصابع الأمريكية فى مباراة الشطرنج الدولية ! فإذا مارفضت الشعوب الانتحار ، فإنها تبقى « منطقة فراغ » حسب التعبير الأمريكانى ، ويعنون « بمنطقة الفراغ » البلاد التى لم تمتلىء بعد بجنود أمريكا ودباباتها .

فليس غريبا إذن — من وجهة النظر الأمريكية — أن تهتم الولايات المتحدة بمنطقة الشرق الأوسط هذا الاهتمام الكبير ؛ فتحاول سد « الفراغ » بنفس الطريقة التى سدته بها فى تركيا واليونان من قبل . وقد كان من مظاهر هذا الاهتمام الأمريكى أن سجلت المراصد فى الشهور القليلة الماضية هزات سياسية داخلية فى معظم بلاد الشرق الأوسط ، ولايصعب على المراقبين أن يستشفوا الأصابع الأمريكية التى تلعب وتحرك من وراء الستائر .

وقد تتبعنا فى العدد الثالث من « المسلمون » بعض مظاهر النشاط الأمريكى فى الرقعة

الإسلامية . . وقد اتضحت ملامح هذا النشاط وغاياته إلى حد كبير فى الفترة بين كتابة مقالنا الأخير وتحرير هذه السطور ... وتفصيل ذلك مايلى :

أصدرت حكومتا كراتشى وأنقرة بيانا مشتركا يوم ١٩ فبراير فحواه أن الحكومتين ستكونان محوراً يستهدف دعم التعاون بينهما فى مسائل السياسة والثقافة والاقتصاد . وبعد ثلاثة أيام أعلن رئيس وزارة باكستان أن حكومته قد طلبت رسميا من الولايات المتحدة إمدادها بعون عسكرى طبقاً لبرنامج المساعدة للدفاع المتبادل ، وسرعان ما أعلن أيزنهاور ترحيبه بهذا الطلب ووصفه بأنه « خطوة إنشائية لدعم الأمن فى منطقة الشرق الأوسط بأسرها ... » وفى يوم ٢ أبريل أعلن من كراتشى أن الحلف التركى الباكستانى قد وقعت معاهدته ، وأنها معاهدة مفتوحة أمام أى دولة ترغب فى الانضمام إليها ، وصرح وزير خارجية تركيا بأنه يتمنى أن تنضم الدول العربية إلى الحلف الذى سوف يعزز من قوة حلف الأطلنطى .

وشبيه بهذا تصريح السيد محمد على رئيس حكومة باكستان الذى قال فيه : « إن باكستان تأمل أن تعقد مع جميع البلاد العربية والإسلامية اتفاقيات مشابهة لاتفاقيتها مع تركيا » . وكما قال فى تصريح آخر : « إن هذه المعاهدة تعد نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى المعاصر ، وإنها خطوة واسعة نحو تقوية العالم الإسلامى » مشيراً بهذا إلى تكوين كتلة من الدول الإسلامية تكون هذه الاتفاقية نواة لها ... وقد سبق لظفر الله خان وزير خارجية باكستان أن نادى بهذه الفكرة منذ أعوام ، وبلغ من تحمسه لها أن وجه بها دعوة رسمية إلى الحكومات الإسلامية ، وقام بجولات متتالية للعواصم الإسلامية يروج لها .

وقبل أن ندلى برأى « المسلمون » فى هذا كله نعرض لموقف بعض الدول الإسلامية والعربية من محور باكستان — تركيا — أمريكا :—

إيران :

اتهمت الصحف زاهدى — وهو متهم بأن له ميولا أمريكية — بأنه ينوى ربط إيران بعجلة هذا الحلف ... ونرى أن زاهدى سوف لايتردد فى هذا ... ولكن بعد أن يحل مشكلة البترول الإيرانى التى مازالت قائمة ، والتى تحاول أمريكا أن تحلها على أساس أن تدخل شركات الزيت الأمريكية مساهمة فى شركة الزيت الدولية المزمع تكوينها بنصيب معادل لنصيب الشركة البريطانية فيها ... ويبدو أن العقبة الوحيدة فى سبيل الوصول إلى حل المشكلة هو تمسك انجلترا بحصولها على تعويض عن إلغاء امتيازها ...

العراق :

كتبت الصحف الأمريكية مراراً — نقلا عن مصادر وزارة الخارجية الأمريكية — أن العراق ستكون ثالثة الأثافى فى الحلف الباكستانى التركى ، وترامت الأنباء البرقية تفيد أن العراق يفكر جديا فى ذلك ... ونسبت إلى الدكتور فاضل الجمالى رئيس وزارة العراق تصريحات تؤيد ذلك ، وقيل إنه ينتقم بهذا المسلك الانفرادى من دول الجامعة العربية التى خذلت مشروعه الخاص بالاتحاد بين الدول العربية . كما « تصادف » أن قام الملك فيصل والأمير عبد الإله والسيد نورى السعيد بزيارة رسمية لباكستان يوم ١٢ مارس الماضى وفى غمرة هذه الأحداث ... إلا أن اللجنة السياسية للجامعة العربية أذاعت بيانا يوم أول أبريل الجارى تنفى فيه الشائعات التى راجت عن

(البقية بعد الصفحات الانجليزية)

انضمام إحدى الدول العربية لحلف تركيا باكستان ، وأكد البيان أن الدول العربية جميعا — وخص العراق بالذكر — لم تفكر فى الاشتراك فى هذا الحلف ، وأنها لن تقبل أى التزام ينقص من « سيادتها الكاملة » و « استقلالها التام » ... ونحن نقول : أفلح — أى العراق — إن صدق !

سوريا :

نشرت صحيفة أمريكية تصريحا منسوبا للسيد صبرى العسلى رئيس الوزارة السورية يرحب فيه بالميثاق ، ويعلن أن سوريا ستتخلى عن سياسة العزلة التى تنتهجها ... إلا أن الرئيس السورى كذب الحديث .

لبنان :

وصل إلى بيروت مستر « باركر هاوت » مدير قسم الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية وعرض على الحكومة اللبنانية تقديم معونة مالية قدرها حوالى ٣٥ مليونا من الدولارات ، وقد قبلت الحكومة العرض من حيث المبدأ ، مما أدى إلى قيام مظاهرات احتجاج من طلبة الجامعة الأمريكية والمدارس الثانوية ، وقد أطلق البوليس — مع الأسف — الرصاص على الطلاب المتظاهرين فقتل منهم وجرح .

المملكة العربية السعودية :

وقد استهدفت — كالعراق — لضغط دبلوماسى أمريكى لتنضم للحلف ... ولكن يبدو أنها صمدت لهذا الضغط ، فقد صرح جلالة الملك سعود بأن بلاده ترفض قبول المساعدات والأسلحة الأمريكية احتجاجاً على ممالأة أمريكا لإسرائيل ولإنجلترا فى احتلالها قناة السويس . . وقد قام جلالته بزيارة رسمية لمصر دارت فيها مباحثات سياسية هامة لم يصرح عنها المسئولون بأكثر من أنها لخير العرب .. وسيزور باكستان فى منتصف هذا الشهر حيث يتداول مع المسؤلين هناك فى موضوع الحلف التركى . . وستتضح اتجاهات العاهل السعودى بعد انتهاء جولته التى توصف بأنها « للاستطلاع » و « جس النبض » .

الأردن :

أذيع أن ملكها سيزور باكستان فى الشهر القادم زيارة رسمية ... وهكذا أصبحت باكستان بؤرة نشاط سياسى ضخم بعد أن صارت محور الدفاع الأمريكى عن الشرق الأوسط ..

***

بقى أن نقول رأينا فى هذا الحلف التركى — الباكستانى — الأمريكى ...

وأهم مايسترعى نظرنا عند التعليق عليه هو محاولة الرسميين من الحكام المسلمين استغلال الإسلام لتسويغ هذا الحلف لدى الشعوب الإسلامية ، ومحاولتهم ربطه بفكرة الكتلة الإسلامية التى هى أمل عزيز لدى المسلمين . ولقد حذرت هذه المجلة مرارا من محاولة استغلال الإسلام فى تكوين كتلة تشايع أحد المعسكرين ضد الآخر ، ولابأس أن نوجز للتذكرة ماسبق أن كتبناه فى أمور ثلاثة : —

أولا : الجامعة الإسلامية — كما يقرها الإسلام — هى رابطة تربط المسلمين ببعضهم من جهة ، ومن جهة أخرى تربطهم بمثل الإسلام العليا . . فهى « إسلامية » من حيث أن أهلها يجمعهم الإسلام : « إسلام » عواطفهم لله رب العالمين ، و « إسلام » أمور حياتهم لأحكامه وتشريعه ، وبغير ذلك لاتكون جامعة إسلامية ، وإنما قد تكون تكتلا على عصبية من نوع لايعرفه الإسلام ، ولو كانت عصبية دينية .

ثانياً : تتهم هذه المحاولات بأنها ليست خالصة لله ولنفع المسلمين بقدر ماهى وليدة التأثير والإيحاء الخارجى ، وبعبارة أصرح : فهذه الكتلة يراد من ورائها استغلال الإسلام فى محاربة الشيوعية لحساب الدولار الأمريكى ... ونحن وإن سلمنا بأن الإسلام والشيوعية لايتفقان ، إلا أننا نظلم الإسلام باستغلاله لحساب مذهب سياسى واقتصادى آخر لايقره ، ومن السخف أن نفكر فى دفع عدوان موهوم فى الوقت الذى نرزح فيه تحت نير زعيمات العالم « الحر » أمريكا وإنجلترا وفرنسا .

ثالثاً : مما يشكك فى جدية اتجاه القائمين بهذه الأحلاف إلى نفع الإسلام ، أنهم يحاربون دعاة الإسلام الصحيح فى بلادهم ويضطهدون الجماعات التى تنادى بتعاليم الإسلام ، نفوراً منهم من شعائر الإسلام وأحكامه التى لايطبقونها حتى على أنفسهم ، وعدم اقتناع منهم بصلاحية الإسلام للتطبيق كنظام ومنهاج للحياة ، وقد كان الأجدر بهم قبل أن يتاجروا به فى السوق الدولية أن يقنعوا أنفسهم بداءة بأنه صالح « للاستهلاك المحلى » .

من أجل هذا لم نعجب عندما رأينا هذا الحلف يقوم بين تركيا وباكستان — بالذات — فتركيا قد انسلخت من إسلامها منذ انقلاب أتاتورك ، وتمرد حكامها على صفتها الإسلامية باسم النهضة والتجديد ، وانتهجوا سياسة قائمة على المصلحة الذاتية المجردة دون نظر لصالح أى دولة إسلامية أخرى ... واتضح هذا بجلاء من اعترافها بإسرائيل وتعاملها معها منفردة فى ذلك دون بقية الدول الإسلامية ، غير عابئة بسخط المسلمين واستنكارهم .

وباكستان التى ضاقت بالمودودى وجماعته فسجنتهم وكادت أن تعدمهم ، لأنهم أعلنوا رأى الإسلام فى القاديانية التى يدين بها وزير خارجيتها الدائم منذ قيامها سنة ١٩٤٧ رغم تعاقب ثلاث حكومات ... ظفر الله خان .

وإذا كان هذا هو موقف الحكام والساسة فإن للشعوب موقفاً آخر تفصح عنه كلما واتتها فرصة للافصاح ، فسرعان ماعبر شعب باكستان عن رأيه فى هذه الأحلاف العسكرية ؟ فقد أسفرت انتخابات الباكستان الشرقية عن هزيمة حزب الرابطة الإسلامية ، وهو حزب الحكومة ، إذ نال سبعة مقاعد من ٢٣٧ مقعداً !! وفازت المعارضة التى تدين بنبذ فكرة الأحلاف العسكرية ببقية المقاعد .. ومع وضوح عدم رضاء الشعب عن حكومته الحالية فما زالت متشبثة بكراسى الحكم ، تنفذ سياستها المرسومة فى واشنطن .

وبالنسبة لتركيا فنحن ننتظر يوم ٢ مايو القادم حيث ستجرى الانتخابات العامة ، وسيختار الأتراك بين أحزاب ثلاثة — عدا الشيوعيين الذين حل حزبهم — وهى الحزب الديمقراطى الذى يتربع فى الحكم الآن ويسير فى سياسته الخارجية خلف الولايات المتحدة وقد أسلمها الزمام ... حتى وصل بتركيا إلى أن أصبحت متأمركة كأمريكا نفسها ، وحزب الشعب — وهو حزب أتاتورك — الذى حكم تركيا ثلاثين عاما متوالية حكماً مطلقاً ، وهو شبيه بالحزب السابق

فى سياسته الخارجية ، وينادى مثله بإبعاد الإسلام عن واقع الحياة العملى ، ويحارب مظاهر العقيدة الإسلامية فى الشعب ...

والحزب الثالث هو حزب الأمة ، وينادى بإطلاق الحرية الدينية للشعب ، وانتهاج سياسة إسلامية واضحة فى الداخل والخارج ، وتقوية الروابط بين تركيا والدول الإسلامية ونبذ الأحلاف العسكرية مع دول الغرب ... وقد التف حول هذا الحزب جمهور ضخم من مختلف هيئات الشعب وصفوة كبيرة من الجامعيين والمثقفين ، والأمل معقود عليه أن يفوز بنسبة كبيرة ، من المقاعد رغم الاضطهاد والتضييق على أنصاره ، بشرط أن تجرى المعركة فى حرية وهدوء ، بعيدة عن تأثير الدولار الأمريكى .

وقد نادت الشعوب الإسلامية والعربية ممثلة فى هيئاتها الشعبية وزعمائها الوطنيين برغبتها فى ألايزج بها فى الصراع العالمى .. وألاتتورط حكوماتها فى أحلاف عسكرية مع دول الغرب .. وقد وضح هذا الاتجاه الشعبى فى كل من أندونيسيا وإيران والعراق ولبنان ...

وقد عبر الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين عن هذا الاتجاه بقوله : إن الإخوان المسلمين فى كافة البلاد الإسلامية يعارضون قبول المساعدات الأجنبية للدول الإسلامية لأنها ترتبط بقيود تبهظ كاهل الدول التى تقبلها ... كما صرح فضيلته بأن الإخوان يطالبون الحكومات الإسلامية بأن تنأى بشعوبها عن الصراع بين المعسكرين الشرقى والغربى ، وأن تنهج سياسة خارجية قائمة على الحياد ...

أخبار متفرقة

* سافر رئيس التحرير إلى القدس للاشراف على مكتب المؤتمر الإسلامى الدائم فيها ، بوصفه الأمين العام ، وقد كان المقرر أن يسافر فى منتصف يناير الماضى إلا أن الظروف حالت دون ذلك

* روعتنا الأنباء بنعى المجاهد الإسلامى الكبير العلامة مسعود الندوى ، إذ توفى فجأة فى كراتشى عن عمر ناهز الرابعة والأربعين ، وقد كان رحمه الله من دعائم الحركة الإسلامية فى باكستان خاصة والعالم الإسلامى عامة . و « المسلمون » تعزى بفقده الأمة الإسلامية وتسأل الله له واسع الرحمة والرضوان .

* أطلق البوليس الفرنسى النار على طلبة جامعة الزيتونة بتونس فقتل بعضهم ... والسبب هو أنهم تظاهروا مطالبين بتعديل برامج الدراسة بإدخال العلوم المدنية ، وبرفع مستواهم من حيث السكن والغذاء .

* يزور هيلاسلاسى إمبراطور الحبشة الولايات المتحدة الأمريكية فى مايو القادم ، وستمنح الحكومة الأمريكية بلاده معونة عسكرية .

* وردنا متأخراً مقال لفضيلة الدكتور مصطفى السباعى بعنوان « دروس من الأسراء » وسينشر فى العدد القادم إن شاء الله .

« التحرير »

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات هذا العـــدد

مطابع دار الكتاب العربي بمصر

The surplus would be returned to the Bayt-ul-Mal for outlays in all parts of the Islamic homeland without discrimination on account of creed or color.

(3) A Perfct Way of Life

Islam legislates for humankind a complete and equitable system: for while it holds the human spirit in an exalted position and prescribes ideal ethical principles, it does not deny the importance of the material in his life; its legislotion is a balanced admixture of the spiritual and the material, the spiritual directions along with legal safeguards.

Thus Islam is not a mere religion in the sense denoted by the equivalent term in English. It is rather a comprehensive way of life spiritually and materially, in the conscience of the individual as well as in the matrix of the group, including the principles of obligation and the state, and dealings of all sorts whether they be economic, political or international,

Such expressions as religion and state, faith and politics, etc. as they are understood in the West, have no equivalent in the Islamic lexicography. The term "Islamic religion" embraces all these concepts in total, but integrally and indissolubly. The Muslim performs his prayers in the mosque, sells his commodities in the market, decides between litigants in a court of law, manages the affairs of state, concludes treaties and covenants with other states, fights in the name of justice and right on the battlefield . . . he does all these things motivated by one spirt, and in accordance with one sharîàh, and in the inspiration of one creed and system -the system of Islam,

Islam builds this imposing edifice on the basis of a belief in God and places the God-fearing conscience as a guardian over legislation and implementation. It makes the link between this consciece and God the pillar of this system for it is always possible to evade and cheat the law, but the eternally vigilant eye of God is always on the watch for those who dare violate upright conduct.

The Islamic system is founded upon the conscience's awareness of God in both private and public behavior, as well as upon the preventive social and economic guarantees to which reference had been made earlier.

Islam depsnds upon two sets of guarantees more than it depends upon sanctions and punishments.

(to be continued).

Moving from the family to the social structure we find social cohesion an imperative in all social relationships and not merely in the spheres of finance and economics.

There is a reciprocal relationship of interdependence between the individual and the group, as regards both rights and obligations. Islam goes so far in this regard that the two interests are inseparably integrated.

Every individual is duty bound to perform his own job satisfactorily, because the fruits of his toil would register their impact upon society as a whole. He is also obliged to refrain from evil deeds and to prevail upon others to do likewise. It is his duty to respect the rights of the community and to struggle towards its preservation and survival.

On the other hand, the individual is entitled to certain rights from the community or the state which represents it; it is the right to be afforded training - both theoretical and practical for gainful and productive employment. The right to a job is also mandatory upon the state towards all able-bodied citizens.

Every worker is entitled to adequate housing facilities, to protect him from heat, cold, rain and to insure him privacy; he is also entited to adequate clothing, food and transportation commensurate with the needs of the time. If he wishes to get married and does not possess the means to do so, the state is duty-bound to help him satisfy this instinctive calling so as to safeguard him from indulging into illicit and immoral practices.

The individual is held responsible for any delinquency in meeting his obligations, and the state is responsible likewise for any failure to meet its obligations towards the individual.

It is thus clear that social cohesion in Islam is not a system of philanthropy and charity; it is a system designed to prepare the citizen for productive endeavor. Only those who are partially or totally incapacitated, whether temporarilly or permanently qualify for help through the zakàh and charity.

Zakàh is only one aspect of the manifold ramifications of the principle of social cohesion. It is not a mere personal charity left to the private consciences of the individuals It is a right exacted and spent by the state in ways very similar to those which in the modern era come under "social security" and "social insurance" combined; it is administered, however, on the basis of decentralization. The zakâh funds of each region should be allocated principally towards meeting the needs of that particular locality.

and sensitivities, and to assert his personolity and will. Freedom and obligation are the pre-requisites of an independent personality. But this apparently individual cohesion is in reality a social one in the wider sense of the concept in Islam. For the training of the individual in this manner is a preparation for the part which he is called upon to play within the social matrix.

Islam then moves from the realm of the individual to that of the family. Again, the family structure is based upon solid cohesion in which advantages and liabilities, rights and obligations are equalized. The family is the cornerstone in the establishment of society; if its edifice is based upon this principle of cohesion and balance, the social obligations of the state are to that extent lightened and reduced, because a substantial portion of such obligations can be shouldered within the orbit of the family.

Such cohesion in the family does not pertain merely to economic affairs; it is all-embracing in scope and includes protection of motherhood, the duty of caring for the children and their adequate preparation physically, mentally and spiritually, the duty imposed upon the offspring towards their parents in their old age and senility, in addition to the normal financial obligations incurred by every family.

With a view to safeguarding motherhood and in order to maintain a healthy "home" atmosphere in which the young may be adequately brought up, Islam has imposed the financial duties of maintenance upon man and has exempted women therefrom. This is designed to afford the mother the necessary time and energy for rearing her young offsprings. A mother who is exhausted by manifold duties outside the home is in no position to afford a healthy home atmosphere. The homes of women employees and workers are more akin to hotels than to family homes. A woman, a wife, or a mother who expends her energies in extra home activities would only bring to the home the fatigue, the exhaustion and the disconcerting effects of her outside work.

Islam does not forbid the women to work; but it does not make work obligatory upon her as it does upon man, in view of the aforementioned reasons, and in order to equalize the burden for males and females.

Islam recognizes women's right to gainful employment if she so desires; it also safeguards her inheritance rights, her right for unrestricted financial dealings. her right to choose her life partner, and her right to revoke the marriage contract when life becomes intolerable.